أوراق الذاكرة ٢

المرأة والحياة الدينية فى العصور الوسطى بين الإسلام والغرب

د. هدى السعدي

د. أميمة أبو بكر

ملتقى المرأة والذاكرة

المرأة والحياة الدينية فى العصور الوسطى بين الإسلام والغرب

د. هدى السعدي د. أميمة أبو بكر

مع تحيـات
ملتقى المرأة والذاكرة

ملتقى المرأة والذاكرة

ملتقى المرأة والذاكرة مجموعة من الباحثـــات و البـــاحثين المـــهتمين بقراءة التاريخ الثقافى العربى من منظور يأخذ فى الاعتبار التشكيل الثقافى و الإجتماعى للجنسين، و الهدف من هذه القراءة هو إعادة التوازن المنشود للذاكرة الجماعية التى تم تشويهها بسبب عملية الإقصاء و الاستبعاد التـــى عانت منها النساء و الفئات المهمشة فى المجتمع. و لأن هناك حاجة شديدة لخلق تراكم معرفى من الدراسات و الأبحاث التى تتناول هذه الإشـــكالية، يصب عمل الملتقى بصفة أساسية فى إنتاج مادة ثقافية متخصصة و أخرى غير متخصصة التى من شأنها إضافة معلومات هامة عن النساء و التاريخ و الذاكرة الثقافية و الشعبية و لغة الخطاب، و لذا نقدم هذه السلسلة التـــى تساهم بدورها فى زعزعة المفاهيم السائدة حول أدوار النساء و علاقتـــها بالثقافة، بهدف توفير الأدوات الثقافية الفعالة للمساهمة فى إزالة العقبـــات التى تحول دون نهضة المرأة و حقوقها.

الإصـــــدار : سلسلة أوراق الذاكرة (٢)
العنـــــوان: المرأة و الحياة الدينية فى العصور الوسطى
بين الإسلام و الغرب
تأليـــــف : هدى السعدى و أميمة ابوبكر
النـــــاشر : ملتقى المرأة و الذاكرة، القاهرة - سبتمبر ٢٠٠١
٤ش عمر بن عبد العزيز، المهندسين
رقم الإيداع : ٢٠٠١/١١٤٨٢
I.S.B.N. : 977- 5895- 07-3
طبـــاعة : Promotion Team، القاهرة - ت: ٣٣٦٧٤٤٩
حقوق الطبع و النشر محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول

التاريخ المنسى للفقيهات والمفتيات فى الاسلام

هل كان للمرأة مكان فى العمل الدينى العام فى العصور الإسلامية الأولى والوسطى، هل شاركت فى هذا الميدان وكان لها حضور وتواجد؟ فالعمل الدينى فى هذه العصور المعنية له فروع كثيرة متشعبة ومتشابكة ، مظلة واسعة تظلل مجالات مختلفة: العمل بالحديث والقضاء والفقه والإفتاء والوعظ والتدريس والخطابة ومشيخة الربط والزوايا، كلها أعمال تستظل بمظلة العمل الدينى العام. فى أى من هذه المجالات تواجدت المرأة ومن أى المجالات اختفت؟ هل فعلا مثلما يعتقد البعض أن المرأة مؤهلة فقط للعمل بالعلوم النقلية التى تعتمد على الحفظ والرواية مثل الحديث وغير مؤهلة للعمل بالعلوم العقلية التى تتطلب قدرات عقلية تحليلية ودراية واسعة؟ كل هذه الأسئلة سنحاول أن نجد لها إجابات من خلال بحثنا هذا وسنحاول توضيح دور المرأة فى المجالات الدينية المختلفة وإن كان حقا دورها مقصورا على علم الحديث أم امتد ليشمل كل فروع العمل الدينى العام النقلية والعقلية. ولكن قبل التعرف على دور المرأة نود أن نقدم تعريفات بسيطة لكل من زاول وعمل بهذه الأعمال الدينية المختلفة.

الفقيه:

هو لقب يطلق على من أتقن الأحكام الشرعية، أحكام العبادات والمعاملات التى طريقها الاجتهاد وليس لزاما أن يكون هذا الشخص قد قام بتدريس الأحكام، يكفى فقط أن يكون على علم بها لكى يستحق لقب

فقيه. أما من ما زال فى طور التعليم والدراسة فلا يطلق عليه فقيه ولكـن متفقه.[1]

المحّدث:

هو كل من له علم بما ورد عن الرسول (ص) من قول أو فعـل وقد وضع المسلمون شروطا كثيرة لمن يقوم برواية الحديث أو الاشـتغال بعلومه فنشأ علم محدد للحديث له مناهج خاصة به وطرق محدده للنقـل يلتزم بها كل من يقوم بنقل الحديث أو الاشتغال بعلومه. هذا التشدد فـى نقل الحديث سببه أهمية الحديث فى التشريع الإسلامى فهو المصدر الثانى للتشريع ولذلك فإن هناك مسؤلية كبيرة تقع على عـاتق المحـدث تجـاه المجتمع الإسلامى والشريعة الإسلامية(حسن حنفى ١٩٩٨، ص٣٣٧).

المفتي:

هو الفقيه الذى أتم دراسة الأحكـام الشـرعية وأصبـح مؤهـلا لإصدار حلول وآراء لمشاكل وخلافات شرعية تعرض عليه، هو من تكن له "ملكة يقتدر بها على استنتاج الأحكام من أدلتها الشرعية"(أحمد عيسوى ١٩٦٧، ص٢٥٥)، وهناك صفات خاصة يجب أن يلتزم بها أى شـخص يريد أن يكون مفتيا ويصدر الفتاوى الشرعية، فالمفتى الذى تقبل فتـواه يجب أن يكون "بالغا عاقلا عدلا ثقة لأن الفاسق غير مقبول الفتوى فـى احكام الدين"(الخطيب البغدادى، ص ٣٠٠) والمفتى الثقة العدل له مكانـة عالية فى المجتمع الإسلامى.

---

[1] ظهرت دراسات كثيرة تناولت أدب الفقيه وعلاقة الفقيه بالمتفقه. أنظر: ابو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى، كتاب الفقيه المتفقه وأصول الفقـه، (القـاهرة: مطبعة الامتياز، ١٩٧٧)

المدرس:

هو فقيه يدرّس الشريعة فى إحدى المؤسسات التعليمية وغالبا ما يكون المدرس معاوناً بنائب ينيب عنه فى بعض الأحيان أو بمعيد يعيد ما ذكره المدرس لطلبته فالمدرس فى هذه العصور مثل الأستاذ الجامعى يقع على قمة الهرم التعليمى الأكاديمى(Makdisi 1981, v. viii, 12) والفقيه الذى ينتصب للتدريس يجب أن يكون عالما بمادته معتمدا على أصول وروايات صحيحة يلجأ اليها أو يعود عليها (عيسى ١٩٨٢، ص٣٦٠).

المعلم والمؤدب:

القاب أطلقت على من يقوم بمهمة التدريس والتعليم فى المستوى التعليمى الأول التى كان يتم تلقيها فى المنزل أو فى الكتاب حيث يتعلم الصغار القرآن ومبادئ القراءة والكتابة (عيسى، ص ٢٤٧-٢٥٥).

الواعظ:

الواعظ هو من يعتمد على القرآن والحديث ليوجه النصائح للناس ويذكرهم بمسئولياتهم الدينية وبواجباتهم تجاه الله تعالى ويذكرهم بالعقاب وبغضب الله، وهناك ثلاثة أنواع من الوعاظ: الواعظ الخطيب وهو من يعظ المسلمين من خلال خطبة الجمعة وهو شخص يجب أن يكون متميزا بالبلاغة وتكون له القدرة على التحدث بصوت واضح وجلى. وهناك أيضا الواعظ الذى يعظ المسلمين من خلال مجالس خاصة للوعظ أو من خلال حلقات العلم. ثم الواعظ القصاص "وقارئ الكرسى" وهذا النوع من الوعاظ هو الذى يعظ الناس من خلال سرده قصة لسير السلف الصالح مع ترديده لآيات من الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة لحث الناس وتبصيرهم بالطريق الصحيح ولكن دون أن يتعرض لأى مسائل أو مناقشات كلامية. غير أن الواعظ القصاص وقارئ الكرسى اختلفا فى

مكان سردهم للقصص والسير فقارئ القص يسرد السير فـــى الشـــوارع والطرقات وليس هناك مكان محدد يتخذه للوعظ كما أنه يسرد القصـــص من الذاكرة ولا يقرأ من كتاب بينما "قارئ الكرسى" يعظ وهو جالس دائما فى مكان محدد يتخذه للوعظ مثل المسجد أو المدرسة أو الخانقـــاه (ابـــن الحاج ١٩٢٩، ص ١٤٤-١٥٣).

شيوخ الربط / شيوخ الصوفيه:

الرباط أو الخانقاه أو الزاوية هى الأسماء التى تطلـــق علـــى دار الصوفيه وشيخ هذه الدار هو الإنسان الذى يقوم على رعاية المتصوفيـــن وتدريب المريدين وتعليمهم التلاوة والذكر فضلا عن قيامه بإدارة شـــئون الدار مثل تحضير الطعام ورعاية الواردين والمحتاجين.[١]

ولأننا وجدنا فى كتب الطبقات أن نسبة تواجد المرأة المحدثة أكبر بكثير من المرأة المشتغلة بالعلوم العقلية حيث أن كتب الطبقـــات مليئـــة بأمثلة لنساء عملن بالحديث وروايته ونقله وتدريسه لذا قررنا عدم تضمين عمل المرأة بالحديث فى دراستنا هذه فهو أمر واضح وجلى ونال اهتمـــام كثير من الباحثين من قبل، وسنركز فقط على العلوم العقلية بما تحتاجـــه من درايه واجتهاد واستنباط أحكام مثل الفقه والإفتاء والوعظ إلى جـــانب مجال دينى آخر برزت فيه المرأة وكان لها دور هام فيـــه هـــو مشـــيخة الربط والزوايا.[٢] وبالبحث فى كتب الطبقات قمنا بحصر عدد من

---

١ ولمعرفة المزيد عن هذه المنشآت الدينية أنظر:
Encyclopedia of Islam, Ribat, (Lieden, Brill: 1995), vol. VIII, pp. 493-509.

٢ ظهرت دراسات كثيرة تناولت المرأة المحدثة بالدراسة والتحليل. أنظر باللغة العربية: أميمه أبو بكر، "المحدثات فى التاريخ الإسلامى (القرن ١٤ و الـــ ١٥م)"، هاجر ٦/٥ (القاهرة: دار نصوص للنشر ١٩٩٨) ص ١٢٥-١٤٠. وأنظر باللغة الانجليزية:
Huda Lutfi, "Al-Sakhawi Kitab al-Nisa as a Source for the Socialand Economic History of Muslim Women during the fifteenth Century A.D,"*The Muslim World*, LXXI (1981). Jonathan Berkey, "Women and Islamic Education in theMamluk Period. " In Nikki Keddie (ed.), *Women in Middle Eastern History*, (New Haven: Yale University Press, 1991).

الأسماء لنساء عملن فى المجالات الدينية المختلفة ثم صنفنهن تبعا لمهنهن أو تخصصاتهن الدينية عسى أن نصل إلى صورة جلية عن عمل المرأة الدينى وتواجدها فى مجالاته المختلفة. وفيما يلى جدول لمهن النساء الدينية المختلفة مرتب ترتيبا زمنيا:

القارئات	المتلقيات	المانحات	الواعظات	شيخات الربط	المدرسات/ المعلمات
زينب بنت ابى سلمه المخزومية (ت ٧٨هـ)، الذهبى، سير أعلام، جـ٣، ص٢٠٠	فاطمة بنت يحيى بن يوسف (ت٣٠٩هـ) كحاله، أعلام النساء، جـ٤، ص١٥	خديجة بنت سحنون بن سعيد التنوخى (ت٢٧٠هـ) كحالة، اعلام النساء، جـ٥، ص ٣١١	سمراء بنت نبهان (أم الرسول ص) ابن عبد البر، الاستيعاب، ق٤، ص ١٨٦٣	عاتكة بنت المستنجد القروزجية (ت٦٤٠هـ) الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٦، ص٦٠٨	مولاه لابى امامه الجوزى، صفة الصفوة، جـ٢، ص٤٥٣
همية بنت حى الاوصابيه الدمشقيه (ت ٩٠هـ) الذهبى، سير أعلام، جـ٤، ص ٢٧٧-٢٧٩	خديجة بنت محمد بن احمد الخوزجانى (ت٣٧٢هـ) كحاله، أعلام النساء، جـ١، ص٣٤١	ام عيسى بنت ابراهيم الحربى (ت٣٣٨هـ) الجوزى، صفة الصفوة، جـ١، ص٦٥١	ميمونه بنت سالم الوله (ت٣٩٣هـ)، كحالة، أعلام النساء، جـ٥، ص١٤٠	زين العرب بنت عبد الرحمن بن عمر بن الحسين (ت٧٠٤هـ) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١١٧	شهده المعروفة بفخر النساء ابن خلكان، الوافى بالوفيات، جـ٢، ص١٧٢
عمره بنت عبد الرحمن (ت ٩٨هـ) ابن سعد، الطبقات، جـ٨، ص٤٨٠-٤٨١	عين الشمس بنت الفضل بن المطهر بن عبد الواحد (ت٦١٠هـ) كحالة، أعلام النساء، جـ٣، ص٣٨٢	امة الواحد بنت القاضى ابى عبد الله بن اسماعيل المحاملى الجوزى، صفة الصفوة، ص٦٥١	خديجة بنت موسى بن عبد الله (ت ٤٣٧هـ) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، جـ١٤، ص٤٤٦	فاطمة الشيخة (ت٨٢٧هـ) السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١١٤	سيدة بنت عبد الغنى العبدرى (ت٦٤٧هـ) الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ١٦، ص٦٥
حفصة بنت سيرين (ت١٠٠هـ)، الجوزى، صفة الصفوة، ق ٢، ص ٢٤٧-٢٤٨	خديجة بنت الحسن بن على بن عبد العزيز القرشيه (ت ٦٤٠هـ) الصفدى، الوافى بالوفيات	فاطمة بنت محمد احمد السمرقندى (عاصرت الملك العادل نور الدين المتوفى سنة ٥٦٩هـ) كحاله، أعلام النساء، جـ٤، ص٩٤	خديجة الشهجانية (ت؟) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، جـ١٤، ص٤٤٦	عائشة بنت على بن عبد الله الرفاعى (ت ٨٣٧هـ) السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٧٧	ام القاسم خالة السخاوى (ت٨٦٠هـ) السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٤٨
ام عيسى بنت ابراهيم بن اسحق	زينب بنت ابى البركات	فاطمة بنت محمد بن مكى العاملى	حمده بنت وثاق بن على	بنت الخواص (ت؟) السخاوى، تحفة	أسماء بنت موسى الضجاعى

الفقيهات	المتكلمات	المحدثات	الواعظات	شيخات الربط	المدرسات/ المعلمات
الحربي (ت ٣٢٨هـ)، الجوزي، صفة الصفوة، ق ١، ص ٦٥١	الحدادية (تعيش في القرن السادس هـ) كحاله، اعلام النساء، جـ٢ ص٥٧	(كانت موجودة سنة ٧٨٦هـ) العاملي، أعيان الشيعة، جـ٤، ص٤٢	بن عبد الله (ولدت سنة ٤٦٦هـ) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٣، ص١٦٥	الاحباب، ص١٥٥	(ت٩٠٢هـ) كحاله، اعلام النساء، جـ١، ص٦٥
امة الواحد بنت عبد الله الحسين المحاملي (ت ٣٧٧هـ) الجوزي، صفة الصفوة، ق ١ص ٦٥١	عائشة بنت محمد بن ابي الفتح ست العيش القاهرية (ت٨٤٠هـ)، السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص٧٨-٧٩		المأورديه (ت٤٦٦هـ) الجوزي، صفة الصفوة، ق٢، ص٢٦٤	زينب بنت عمر كندي بن سعيد بن علي (ت؟)، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٤، ص ٦٦	عائشة الباعونيه (ت٩٢٢هـ) الغزي، الكواكب السائرة، جـ١، ص ٢٨٧
عائشة بنت الفضل الكيساني (ولدت قبل ٤٦٠هـ) كحاله، اعلام النساء، جـ٣، ص١٨٥)	ام هانئ بنت نور الدين ابو الحسن (ت٨٧١هـ)، السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص١٥٧		باسمويه السيرافيه (ت٥٠٢هـ)، كحالة، اعلام النساء، جـ٥، ص ٢٩٥	فاطمة بنت قريمرز (ت؟) الغزي، الكواكب السائرة، جـ٢، ص٢٣٨	عائشة بنت ابراهيم بن صديق (ت؟) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٤٥
فاطمة بنت محمد احمد السمرقندي، (عاصرت الملك العادل نور الدين المتوفى سنة ٥٦٩هـ) كحاله، اعلام النساء، جـ٤، ص ٩٤	رميدة بنت اسعد القسطنطينية (ت١١٩٤هـ) ، المرادي، كتاب سلك الدرر، جـ٢، ص١١٧		زينب بنت ابي البركات البغدادية (القرن السادس هجري) كحالة، اعلام النساء، جـ٢، ص٥٧		اسماء بنت الفضل - القصر المملوكي ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣٦٠
فاطمه بنت أحمد الرفاعي الكبير (ت ٦٠٩هـ) كحاله، اعلام			زينب بنت احمد المروزي - زين النساء		بنت علي النشار (ت١٠٣١هـ) العاملي، أعيان الشيعه، مجلد ١٤،

الفقيهات	المتفقهات	المفتيات	الواعظات	شيخات الربط	المدرسات/ المعلمات
النساء، جـ٤، ص ٢٧			(ت ٥٤٣هـ) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٥، ص٦٤		جـ١٧، ص١٦٩
ام البقاء خديجة بنت حسن (ت ٦٤١هـ) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٣، ص٢٩٧			ضوء الصباح بنت مبارك – خاصة العلماء (ت٥٨٥هـ) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٦، ص٣٧٠		
خديجة بنت القيم البغدادية (ت ٦٩٩هـ)، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٣، ص٢٩٦			شمس الضحى بنت محمد عبد الجليل البغدادية (ت٥٨٨هـ) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٦ ، ص ١٨٤		
فاطمة بنت عباس البغدادية (ت ٧١٤هـ) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٢٦٦			تاج النساء بنت رستم بن ابي الرجاء الاصبهاني (ت ٦١١هـ) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١، ص٣٧٤		
فاطمة بنت محمد بن احمد العكبرى (ت٧٧٦هـ) العاملي، اعيان الشيعة، جـ٤، ص٤٢			زينب بنت فاطمة بنت عباس البغدادية (ت٧٩٦هـ) ابن حجر،		

الفقيهات	المتفقهات	المفتيات	الواعظات	شيخات الربط	المدرسات/ المعلمات
			الدرر الكامنة، جـــــ٣، ص٢٦٦		
فاطمة بنت محمد ابن مكى العـاملى (كانت موجـــودة سنة ٧٨٦هـ) العاملى، أعيـــان الشيعة، جـــ٤، ص٤٢					
زينب بنت فاطمـة بنت عيـــاش (ت ٧٩٦هـ) ابن حجر، الـدرر الكامنه، جـــ٣، ص٢٦٦					
دهماء بنت يحـى المرتضـــى (ت ٨٣٧هـ) كحالـه، اعـــلام النســاء، جـــ١، ص٤٢٠					
عائشة الباعونيـة (ت ٩٢٢هـ) الغزى، الكواكـب السائرة، جـــ١، ص٢٨٧					
خديجة بنت محمد البيلونـــى (ت ٩٣٠هـ) الغزى الكواكـب السائرة، جـــ١، ص٩٢					
خديجة بنت محمد العـــامرى (ت ٩٣٥هـ) الغزى، الكواكـب السائرة، جـــ٢، ص١٤١					
باى خـــاتون (ت ٩٤٢هـ)					

الفقيهات	المتفقهات	المفتيات	الواعظات	شيخات الربط	المدرسات/ المعلمات
الغزي، الكواكب السائرة، جـــ١، ص١٠٩					
بنت علي النشار (ت١٠٣١هـ) العاملي، أعيان الشيعة، جـــ١٣، مجلـــــد ١٤، ص١٦٩					
قريش بنت عبد القادر الطبرية (ت١١٠٧هـ) كحالـه، أعلام النساء، جـــ٤، ص٩١					

كما هو واضح من الجدول السابق أن النساء عملن فى مجال الفقه كفقيهات أو كن دارسات للفقه (متفقهات)، كذلك عملن بالإفتاء والوعظ وبمشيخة الربط والزوايا وبالتدريس والتعليم إلا أن الجدول لا يتضمن العمل بالحديث للسبب المذكور سابقا. كذلك لا يتضمن الجدول العمل بالقضاء حيث أننا لم نرد أن نخوض فى هذا الموضوع لأنه شائك وشبه محسوم.[1] ولذا قصرنا الدراسة على المجالات الدينية الستة الموجودة فى الجدول ونبدأ الآن بالفقه. وهو مجال برزت فيه المرأة فظهر اسمها كفقيهة ممارسة أو متفقهه دارسة لهذا العلم فى عدد لا بأس به من المصادر. وبالنظر إلى الجدول وملاحظة سنوات وفاة هؤلاء الفقيهات نجد أنهن كن موجودات على الساحة من القرن الأول للهجرة / السابع الميلادى وحتى القرن الثانى عشر للهجرة / الثامن عشر ميلادى. فأقدم الفقيهات فى هذا الجدول هى زينب بنت أبى سلمه المخزوميه المتوفيه سنة ٧٣ هـ وكانت من أفقه نساء زمانها بالمدينة (الذهبى ١٩٩٦، جـ٣، ص ٢٠٠) كذلك هناك هجميه بنت حى الأوصابية الدمشقية المشهورة بأم الدرداء الفقيهة المتوفية سنة ٨١ هـ وهى فقيهه كبيرة زاهدة واسعة الاطلاع وافرة العقل والذكاء (الذهبى، جـ٤، ص ٢٠٧-٢٧٩). وهناك أيضا عمرة بنت عبد الرحمن التى تنتمى للجيل الثانى من الصحابيات وحفصه بنت سيرين التى توفيت سنة ١٠٠ هـ (الجوزى ١١٤١هـ، جـ٢، ص ٢٤-٢٤٧). ولأن عمرة بنت عبد الرحمن كانت قريبة من عائشة زوجة الرسول (ص) وعدد من الصحابة لذا كانت على علم جيد بالقرآن و السنة و مصادر الفقه الإسلامى ، مما جعل أهل المدينة يلجأون اليها لمعرفة الأحكام فى كثير من العبادات و المعاملات و قد اعتبرت المصدر لعدد من الأحكام الشرعية مثل منع بيع الثمار غير الناضجة حيث أن المحاصيل قد تفسد قبل

---

١ فعلى الرغم من أن عالما ومؤرخا مثل الطبرى قد أجاز للمرأة القضاء فى كل الأمور التى يجوز للرجل أن يقضى فيها وابو حنيفه أجاز لها العمل بالقضاء فى القضايا التى يؤخذ فيها بشهادتها هذا فضلا عن أن عمر بن الخطاب قد ولى الشفاء بنت عبد الله المخزوميه قضاء الحسبه وهو مثل واضح للقضاء فى الاموال إلا إننا لم نجد أمرأة واحدة مارست القضاء فعليا فى المجتمع الإسلامى وقد يكون مرجع هذا إلى أن القضاء منذ بداية المجتمع الإسلامى منصب مرتبط بالسلطة السياسية العسكرية – أنظر: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه، المغنى، تحقيق عبد الله التركى وعبد الفتاح الحلو، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ١٩٨٦)، جـ ١٤ ، ص ١٢.

نضجها مما يؤثر على عملية بيع الانتاج الزراعـــى (الســـيوطى ١٩٥١، جـــ٢ ص٥١). كذلك ما يجوز فى استثناء التمر وقد استشهد مـــالك بـــها حين ذكر فـــى الموطـــأ "إن عمـــرة كـــانت تبيـــع ثمارهـــا وتســـتثنى منها"(السيوطى، جـــ٢، ص ٥٢). فضلا عن أنها نهت ابن أختـــها مـــن إقامة الحد على رجل سرق خواتم من حديد وقالت له "أن عمرة تقول لك لا قطع إلا فى ربع دينار فصاعدا" (السيوطى، جـــ٢، ص١٧٧). كـــانت عمرة مصدر ثقة واحترام المجتمع فـــى المدينـــة وقـــد كـــان العلمـــاء والمؤرخون يذكرونها دائما بألفاظ التبجيل والاحترام فنجد ابن سعد يصفها فى كتابه الطبقات الكبرى "بالعالمة" (ابن سعد ١٣٢١ هـــ، جـــــ٨، ص ٤٨٠-٤٨١).

وبعد فقيهات القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ينقلنا الجدول إلـــى القرن الرابع الهجرى فنرى أم عيسى بنت إبراهيم بن اســـحق الحربـــى (الجوزى، جـــ١، ص٦٥١) (ت٣٢٨هـــ)، وأمة الواحد بنـــت عبـــد الله الحسين المحاملى (ت ٣٧٧هـــ) التى قيل عنها أنها كانت "من أحفظ الناس للفقه على المذهب الشافعى" فقد برعت أمة الواحـــد فـــى دراســـة الفقـــه الشافعى والفرائض والحساب حتى أنها كانت تعد أيضـــا مصـــدرا مـــن مصادر الأحكام الشرعية الخاصة بالمواريث فى عصرهـــا (الجـــوزى، جـــ١، ص ٦٥٢).

أما عن فقيهات القرنين الخامس والســـادس الـــهجرى فـــالجدول يرصد لنا عائشة بنت الفضل ابن أحمد الكيسانى وهى فقيهة عالمـــة ذات صلاح ودين ولدت قبل سنة ٤٦٠هـــ (كحاله ١٩٩١، جـــ٣، ص ١٨٥) وفاطمة بنت محمد أحمد السمرقندى من فقيهات حلب درست الفقه علـــى المذهب الحنفى ولها **مؤلفات عديدة فى الفقه** وقد كانت مصدرا للأحكـــام الشرعية فى حلب وقال عنها أحد فقهاء حلب "هى التى سنت الفطر فـــى رمضان للفقهاء بالجلاويه فكان فى يدها سواران فأخرجتـــهما وباعتـــهما وعملت بالثمن الفطور كل ليلة" (كحاله، جـــ٤، ص ٩٤).

نضجها مما يؤثر على عملية بيع الانتاج الزراعـــى (الســـيوطى ١٩٥١، جـــ٢ ص٥١). كذلك ما يجوز فى استثناء التمر وقد استشهد مـــالك بـــها حين ذكر فـــــى الموطـــأ "إن عمـــرة كـــانت تبيـــع ثمارهـــا وتســـتثنى منها"(السيوطى، جـــ٢، ص ٥٢). فضلا عن أنها نهت ابن أختـــها مـــن إقامة الحد على رجل سرق خواتم من حديد وقالت له "أن عمرة تقول لك لا قطع إلا فى ربع دينار فصاعدا" (السيوطى، جـــ٢، ص١٧٧). كـــانت عمرة مصدر ثقة واحترام المجتمع فـــــى المدينـــة وقـــد كـــان العلمـــاء والمؤرخون يذكرونها دائما بألفاظ التبجيل والاحترام فنجد ابن سعد يصفها فى كتابه الطبقات الكبرى "بالعالمة" (ابن سعد ١٣٢١ هـــ، جـــــ٨، ص ٤٨٠-٤٨١).

وبعد فقيهات القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ينقلنا الجدول إلـــى القرن الرابع الهجرى فنرى أم عيسى بنت إبراهيم بن اســـحق الحربـــى (الجوزى، جـــ١، ص٦٥١) (ت٣٢٨هـــ)، وأمة الواحد بنـــت عبـــد الله الحسين المحاملى (ت ٣٧٧هـــ) التى قيل عنها أنها كانت "من أحفظ الناس للفقه على المذهب الشافعى" فقد برعت أمة الواحـــد فـــى دراســـة الفقـــه الشافعى والفرائض والحساب حتى أنها كانت تعد أيضـــا مصـــدرا مـــن مصادر الأحكام الشرعية الخاصة بالمواريث فى عصرهـــا (الجـــوزى، جـــ١، ص ٦٥٢).

أما عن فقيهات القرنين الخامس والســـادس الـــهجرى فـــالجدول يرصد لنا عائشة بنت الفضل ابن أحمد الكيسانى وهى فقيهة عالمـــة ذات صلاح ودين ولدت قبل سنة ٤٦٠هـــ (كحاله ١٩٩١، جـــ٣، ص ١٨٥) وفاطمة بنت محمد أحمد السمرقندى من فقيهات حلب درست الفقه علـــى المذهب الحنفى ولها **مؤلفات عديدة فى الفقه** وقد كانت مصدرا للأحكـــام الشرعية فى حلب وقال عنها أحد فقهاء حلب "هى التى سنت الفطر فـــى رمضان للفقهاء بالجلاويه فكان فى يدها سواران فأخرجتـــهما وباعتـــهما وعملت بالثمن الفطور كل ليلة" (كحاله، جـــ٤، ص ٩٤).

ثم ننتقل بعد ذلك إلى القرنين السابع والثـــامن الـــهجرى حيـــث يعرض لنا الجدول أسماء عدد من النساء العاملات بالفقه مثل: فاطمة بنت أحمد الرفاعى الكبير الفقيهة الصالحة القانتة المتوفيـــة ســـنة ٦٠٩ هـــ (كحاله، جـــ٤، ص ٢٧)، وأم البقاء خديجه بنت حسن التى توفيت ســـنة ٦٤١هـــ وكانت صالحة زاهدة تشتغل بالفقه، (الصفدى ١٩٣١، جـــ١٣، ص٢٩٧). وخديجة بنت القيم البغدادية المتوفيه سنة ٦٩٩هـــ، والتى كانت قارئة للقرآن فقيهة متفقهة بالدين (الصفدى، جـــ١٣، ص٢٩٦)، كذلـــك هناك فقيهتان مشهورتان فى القرن الثامن الهجرى وهمـــا فاطمـــة بنـــت عياش بن أبى الفتح البغدادية وابنتها زينب. ففاطمة الأم المتوفيـــة ســـنة ٧١٤هـــ كانت تدرى الفقه جيدا وقد اثنى عليها ابن تيمية وتعجـــب مـــن حرصها وذكائها وقد استفاد من علمها أهل دمشق ثم انتقلت إلى القـــاهرة فذاع صيتها هناك وارتفع قدرها (ابن حجر العسقلانى ١٩٩٣، جـــ٣ ص ٢٦٦). وقد أخذت عنها ابنتها زينب، المتوفية ســـنة ٧٩٦هـــ، الفقـــه فأصبحت هى الأخرى فاضلة ذات صلاح ودين. ومن المثير للانتبـــاه أن زينب هذه قد عرفت فى كتب الطبقات على أنها زينب بنت فاطمة بنـــت عياش البغدادى حيث أخذت اسمها من والدتها الفقيهة ذائعة الصيت وليس من والدها الذى ربما لم يكن على نفس درجة علم والدتها وشهرتها. هناك أيضا الفقيهة أم العز نصر بنت أحمد توفيت سنة ٧٣٠هـــ درست مع عدد كبير من مشائخ القاهرة حتى نبغت واشتهرت فى مجال الفقه وقـــد كـــان والدها فخورا بها وكان يتأسف كثيرا لعدم وصول أخيها لنفـــس درجـــة علمها ومعرفتها (ابن حجر العسقلانى، جـــ٤، ص ٩٤٢). كذلك هنـــاك الفقيهة فاطمة بنت محمد بن احمد بن عبد الله العكبرى وهى فقيهة شـيعية توفيت سنة ٧٧٦هـــ. وفاطمة بنت محمد بن مكى العاملى وهى شـــيعية أيضا وكانت موجودة سنة ٧٨٦هـــ وقد كان أبوها يثنى عليـــها ويـــأمر النساء بالاقتداء بها (العاملى١٩٣٨،جـــ٤، ص٤٢). هناك فقيهة أخـــرى جديرة بالاهتمام وهى دهماء بنت يحيى المرتضى عالمة وفقيهة فاضلة قامت بتأليف بعـــض الكتـــب فـــى مجـــال الفقـــه فـــألفت "شـــرحا للأزهار" فى أربعة مجلدات "وشرحا لمنظومة الكوفى فى الفقه والفرائض"

(كحاله،جـ١، ص٤٢٠) ودهماء هذه مهمة جدا حيث أنها من الفقيهات القلائل اللاتى سجلت المصادر أسماء مؤلفاتهن وتراثهن.[١]

من الفقيهات المشهورات اللاتى سجلت المصادر تراثهن الفقهى أيضا فقيهة تنتمى إلى القرن العاشر الهجرى هى عائشة الباعونيه المتوفية سنة ٩٢٢هـ وقد عرفتها المصادر بالشيخة الصوفية الدمشقية الأديبة العالمة العاملة وقد ذهبت إلى القاهرة ونالت من العلوم حظا وافرا وأجيزت بالإفتاء والتدريس وألفت عدة كتب سيرد ذكرها فى الجزء الثانى. عاصرت عائشة السلطان الغورى المملوكى وذكرت المصادر أنها قابلت عددا كبيرا من المشائخ.[٢] و من فقيهات القرن العاشر الهجرى أيضا هناك خديجة بنت محمد العامرى التى توفيت سنة ٩٣٥هـ و قد

---

١ بالنسبة لموضوع تراث أو مؤلفات الفقيهات فهو موضوع هام يحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل فالمعلومات عنه قليلة جدا تكاد تكون نادرة فى المصادر فضلا عن اننا اذا توصلنا لأسماء بعض كتب الفقيهات نجد أنها قد ضاعت أو اختفت عبر العصور ولا نتمكن من الوصول إليها. ولذا فإن هناك فقيهتان من فقيهات الشيعة تحدث عنهما العاملى فى كتابه "أعيان الشيعة" إلا اننى لم أستطع أن أضمنهما فى الجدول لعدم توضيح الفترة الزمنية التى تواجدتا فيها خاصة وأن كتاب العاملى يغطى فترة زمنية طويلة جدا من بداية الإسلام وحتى بداية القرن العشرين ولكن لأن هاتين الفقيهتين تركتا تراثا فقهيا كبيرا كان من اللازم التنويه بأهميتهما عسى أن يؤدى هذا إلى مزيد من البحث فى تراث الفقيهات الذى بوجه عام أغفلته أو أسقطته المصادر. فالفقيهة الأولى هى بنت عزيز الله الحلبى وكان لها "تعاليق على كتاب من يحضره الفقيه" "ورسائل فى مسائل فقهية" والثانية هى ابنة شاه طهماسب الصفدى التى "ألف" لها جملة من العلماء رسائل فى أصول الفقه العاملى، (أعيان الشيعة جـ١٤ مجلد ١٥ ص ١٦٨، جـ٦ ص ١١٢). وتستوقفنا كلمة "ألف" لها فتدل على أنه من المرجح أن العلماء كانوا يجمعون الآراء الفقهية أو الفتاوى المتناثرة فى حلقات العلم ويتم تجميعها فى شكل رسائل فقهية وهذا كله دليل على أن النساء كان لهن مساهمة مكتوبة فى تشكيل تاريخ الفقه ولم يكن دورهن هامشيا أو شفاهيا فقط يختص بأحكام النساء بل كن يناقشن مسائل فقهية نظرية وعملية. ولا ينتبه كثير من الباحثين إلى هذه الإشارات المدفونة فى قواميس الأعلام وكتب الطبقات مثل (ألف لها أو أخرج لها).

٢ نجم الدين الغزى، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، حققه وضبط نصه د. جبرائيل سليمان صبور، (جونيه: مطبعة المرسلين اللبنانيين، ١٩٤٩) جـ١، ص ٢٨٧ – لم تذكر المصادر بالنص أن عائشة كانت فقيهة ولكن بما أنها كانت تفتى فى أمور فقهية فهذا معناه أنها عالمة فقه.

عرفت فى المصادر "بالفقيهة الصالحة" (الغزى، جـ٢، ص١٤١)، كذلك هناك خديجة بنت محمد البيلونى المتوفية سنة ٩٣٠ هـ الشيخة الحنفية التى تخصصت فى الفقه الحنفى وحفظت فى مذهب الحنفية كتابا على الرغم من أن أباها وأخوتها شافعيون (الغزى، جـ١ ص١٩٢). وأيضا باى خاتون وهى فقيهة شافعية توفيت سنة ٩٤٢هـ قرأت (بمعنى عرفت ودرست) المنهاج النووى وإحياء علوم الدين للغزالى (الغزى، جـ١، ص١٠٩) وهناك أيضا فى بداية القرن الحادى عشر الهجرى الفقيهة الشيعية بنت على النشار التى توفيت سنة ١٠٣١هـ وقد عرفتها المصادر "بالفقيهة الفاضلة" وورثت عن والدها أربعة آلاف مجلد من الكتب النفيسة (العاملى، جـ١٣ ، مجلد ١٤ ص١٦٩).

ينقلنا الجدول بعد ذلك إلى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى حيث وجدنا فقيهة مكية تدعى قريش بنت عبد القادر الطبرية التى توفيت سنة ١١٠٧هـ وأخذت الفقه عن والدها (كحاله، جـ٤ ص ٩١). ومن الملاحظ أن هذه الفقيهة تنتمى إلى العصور المتأخرة من التاريخ الإسلامى وهى فترة لم نضمنها فى موضوع دراستنا إلا أننا أردنا أن نذكرها لنوضح متى اختفت النساء من ساحة العمل الفقهى حيث أنه بعد هذه الفقيهة لم نجد فى المصادر – باستثناء كتب الفقه الشيعى – أى ذكر لنساء عملن بالفقه الإسلامى.

نلاحظ بوجه عام من خلال هذا العرض الزمنى للفقيهات فى الجدول أنه كان هناك تناقص تدريجى فى تواجدهن فى الساحة العلمية والعملية حتى اختفين تماما فى القرن الثانى عشر هـ / القرن الثامن عشر م ، حينما تحول الفقيه من سلطة مستقلة يستنبط ويصدر الأحكام الشرعية إلى موظف فى الدولة يخضع لمؤسساتها ونظامها الحاكم (Roded 1994, 84). وهذه الأمثلة التى أوردناها علامة تدل على وجود تراث غنى أو سياق ثقافى يشكل سلسلة متواصلة من التطور بما سمح لهؤلاء الفقيهات بالتواجد والممارسة المهنية خلال هذه القرون الطوال. ونلاحظ أن هؤلاء الفقيهات قد قمن باستنباط أحكام شرعية وكانت لهن قدرات عقلية وتحليلية وتركن تراثا شفاهيا ومكتوبا ومؤلفات فقهية، وقد أثنى عليهن العلماء والمؤرخون واعتبروهن مرجعا شرعيا سليما فى كثير

من الأمور والفتاوى والأحكام دون تشكيك أو تعجب بل عـــن ثقـــة فـــى كفاءتهن وكانوا يذكرونهن دائما بألفاظ الاحترام والتبجيل.

وإلى جانب النساء اللاتى عملن بالفقه واستنبطن الأحكام الشرعية كانت هناك نساء متفقهات أى فى طور دراسة الفقه، وفى أغلب الظـن أن المتفقهات بمجرد الانتهاء من طور الدراسة يصبحن مؤهلات للعمل بالفقه فضلا عن أنه فى بعض الأحيان كانت المرأة الواحدة توصـــف بالفقيهـــة والمتفقهة فى آن واحد (Makdisi 1981, 172). لذلك فأغلب الظـــن أن المتفقهة والفقيهة شئ واحد ولكن لتحرى الدقة نقول أنـــه كـــانت هنـــاك مجموعة من النساء درسن الفقه ولكن لم يُعرفن فى المصادر بالفقيـــهات ولم يُذكر أنهن استنبطن أحكاماً أو تركن أى تـــراث فقـــهى ولذلـــك لـــم نضمنهن فى جدولنا كفقيهات وإنما سجلناهن كمتفقهات دارسات للفقه: مثل فاطمه بنت يحى بن يوسف المتوفية ســـنة ٣١٩هـــ والتـــى وصفتـــها المصادر بالعالمة المتفقهة فى الدين (كحاله، جـــ٤ ص١٥) وخديجة بنـــت محمد بن أحمد الخورجانى المتفقهة الحنفية المتوفية سنة ٣٧٢هـــ (كحاله، جـــ١ ص ٣٤١) وخديجة بنت الحسن بن على بن عبد العزيز القرشـــية الدمشقية من الحافظات المتفقهات فـــى الديـــن توفيـــت ســـنة ٦٤٠هـــ (الصفدى، جـــ١٣ ص ٢٩٧). وزينب بنت أبى البركات البغدادية التـــى درست الفقه إلى جانب الأدب وكانت تعيش فى القرن السادس الـــهجرى (كحاله، جـــ٢ ص١٥٧). كذلك عين الشمس بنت الفضل بن المطهر بـــن عبد الواحد التى توفيت سنة ٦١٠هـــ وكانت متفقهة فى الديـــن (كحالـــه، جـــ١٣ ص٣٨٢) وأيضا هناك عائشة بنت على بن محمد بن أبى الفتـــح التى تدعى ست العيش القاهرية المتوفية سنة ٨٤٠هـــ، نشأت فـــى جـــو علمى قرأت القرآن وأخذت الإجازة من عدد كبير مـــن مشـــايخ مصـــر وسوريا، وكانت تطالع كتب الفقه على المذهب الحنبلى وبرعت فيه وكان ذكاؤها وقدراتها العقلية التحليلية محل تقدير كل من عاصرها (الســـخاوى ١٩٣٤، جـــ١٢ ص ٧٨-٧٩). كذلك أم هانى مريم بنت نور الدين أبـــو الحسن على المتوفية سنة ٨٧١هـــ التى نشأت فى جو علمى فوالدها كـــان عالما مشهورا، وجدها لأمها الذى تولى تربيتها كان قاضيا ومن هنا جـــاء اهتمامها بدراسة الفقه. وقد اهتمت هى بدورها بتربية أبنائـــها الأربعـــة ودفعتهم لدراسة الفقه حيث نجد أن كل ابن من أبنائها قد تخصـــص فـــى

مذهب من مذاهب الفقه الأربعة (السخاوى، جـ١٢ ص ١٥٧). آخر من توصلنا إليها من النساء اللاتى كن على علم بالفقه وقارئات لكتبه هى زبيدة بنت أسعد القسطنطينية المتوفية سنة ١١٩٤هـ وهى مثل قريش الطبرية – الفقيهة السابقة الذكر – تنتمى لفترة متأخرة عن دراستنا إلا أننا ضمناها هى أيضا فى الجدول لنوضح متى ابتعدت النساء عن مجال الفقه والتفقه (المرادى ١٨٧٤، جـ٢ ص ١١٧). كل هذه هى أسماء لفقيهات ومتفقهات كن أمثلة جيدة لنشاط المرأة فى هذا الجانب العام فى الحياة الدينية فقد عملت النساء جاهدات لإثبات وجودهن فى العمل الدينى وتركن بصماتهن الواضحة عليه.

هناك مجال دينى آخر برزت فيه المرأة وكان لها تواجد كبير فيه أيضا وهو الإفتاء أو الفتيا. فالإفتاء هو إصدار فتاوى فى أحكام الدين والشريعة والشخص الذى يصدر هذه الفتاوى يطلق عليه مفتى أو مفتية وهناك أوصاف محددة أجمع عليها العلماء فى المفتى اذ اتفقوا جميعا على أن المفتى الذى تقبل فتواه يجب أن "يكون بالغا عاقلا عدلا ثقة لأن الفاسق غير مقبول الفتوى فى أحكام الدين.. سواء كان حرا أو عبدا لأن الحرية ليست شرطا فى صحة الفتوى، ثم يكون عالما بالأحكام الشرعية" (الخطيب البغدادى، جـ١١ ص١٥٦). كما أجمع العلماء على أن من يصدر الفتوى يجب أن يكون واسع العلم والاطلاع على معرفة تامة بالفقه بفروعه وأصوله، مضطلعا على أقاويل الصحابة والتابعين والأئمة فى الفقه والتفسير، واقفا على ما أخذوا وتركوا من السنن وما أختلفوا فى تثبيته وتأويله من الكتاب والسنة هذا كله إلى جانب التمكن من اللغة العربية وأصول النحو والصرف (القرطبى ١٩٦٨، جـ٢ ص ٢٠٧). ولأن القائم بالإفتاء لم يشترط فيه أن يكون رجلا فقد فتح هذا المجال للمرأة فبرزت ونبغت وهناك أمثلة كثيرة لنساء مفتيات كان يلجأ إليهن الناس لمعرفة أحكام الدين فيما يقابلهم من مشاكل وخلافات شرعية فى حياتهم اليومية.

لقد بدأ الإفتاء فى الإسلام حينما كان يذهب المسلمون للرسول يستفتونه فى أمور دينهم ودنياهم وقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم "يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة.." (سورة النساء آيه ١٧٦). وبوفاة

الرسول (ص) بدأ الناس يتجهون إلى الصحابة والصحابيات الذين كـــانوا قريبين من الرسول ليعلموا منهم السلوك الإسلامى الصحيح ويسألونهم أو يستفتونهم فيما يختلط عليهم من أمور دينهم. وقد كانت الفتيا فـــى هـــذه الفترة الإسلامية الأولى مرتبطة بالحفاظ على السنة النبوية الشريفة فلعبت السيدة عائشة بسبب قربها من الرسول (ص) دورا هاما فى هذا المجـــال وكان المسلمون يلجأون اليها دائما لمعرفة ما كان يقوم به الرســـول فـــى حياته ومعيشته اليومية. ولكن بموت هذا الجيل من الصحابة والصحابيات فقد المسلمون مصدرا هاما كان يوجههم ويرشدهم لأدق تفـــاصيل حيـــاة الرسول وسننه الشريفة ولهذا بدأ المسلمون مع القرن الثانى الـــهجرى / الثامن الميلادى يطلبون المشورة والنصيحة من الأشخاص الذين تمـــيزوا بالعقل والثقة والتقوى والعدل والعلم الواسع بالأحكام الشـــرعية أصولـــها وفروعها ومن هنا أصبحت هذه الصفات صفات أساسية فى المفتى الـــذى تقبل فتواه وبدأ الإفتاء يتبلور فى المجتمع الإســـلامى ويصبـــح نشـــاطا واضحا له شروط وقواعد تحكمه، شروط اتفق عليها ووضعها رجال العلم والدين وليس رجال الدولة والسياسة، فالإفتاء لم يكن فى البداية مرتبطـــا بالسلطة بل كان عملا حرا مفتوحا لأى شخص تتوافر فيه الصفات السابقة الذكر (Masud 1996, 409).

ولذا عملت المرأة فى هذا المجال وبرزت فيه وقد استطعنا حصر عدد من المفتيات ورتبناهن ترتيبا زمنيا فى الجدول السابق. هناك خديجة بنت سحنون بن سعيد التنوخى المتوفيه سنة ٢٧٠ هـــ ، كانت تعد مـــن أشهر مفتيات القرن الثالث الهجرى فى بلاد المغرب وتمـــيزت "بـــالعقل والرأى والعلم والفضل" ، أخذت العلم عن والدها حامل لـــواء المذهـــب المالكى فى المغرب وكان يستشيرها فى مهمات أموره ويستفتيها النـــاس فى مسائل دينهم (كحاله، جـــ٥ ص ٣١١) كذلك هناك أم عيســـى بنـــت إبراهيم الحربى المتوفيه سنة ٣٣٨هـــ وكانت معروفـــة بكونـــها عالمـــة فاضلة تفتى فى الفقه (الجوزى، جـــ١ ص ٦٥١) وأيضـــا الفقيـــهة أمـــة الواحد بنت القاضى أبى عبد الله بن إسماعيل المحاملى المتوفية سنة ٣٧٧ هـــ وكانت مفتية فاضلة وقد ذكرت المصادر أنها كانت "تفتى مـــع أبـــى على بن هريره" (الجوزى، جـــ١ ص ٦٥٢). كذلك فاطمة بنت محمـــد أحمد السمرقندى التى عاصرت الملك العادل نور الدين المتوفـــى ســـنة

٥٩٦، كانت مفتية لها شهرة واسعة كما رأيناها من قبل فقيهة من فقيهات المذهب الحنفى (كحاله، جـ٤ ص ٩٤). والفقيهة الشيعية فاطمة بنت محمد بن مكى العاملى السابقة الذكر كانت مفتية مشهورة بين الناس بالعقل والتقوى فكان يلجأ اليها الناس طلبا للمشورة والفتوى وكانت النساء يرجعن اليها فى أحكام الحيض والصلاة (العاملى، جـ٤ ص ٤٢).

نلاحظ من الأمثلة السابقة كيف أن الإفتاء كان مرتبطا بالفقه حيث أن الفقيهات اللاتى اتصفن بالعلم والتقوى وصلاح الشخصية كان يلجأ اليهن الناس لطلب الفتوى والمشورة فواضح جدا أن المجالين متداخلان ومرتبطان بعضهما البعض. وتعتبر عائشة الباعونية المتوفية سنة ٩٢٢هـ مثلا آخر واضحا للفقيهة الفاضلة التى تصل إلى درجة من العلم والتقوى تسمح لها بمزاولة الإفتاء فقد ذكرت المصادر إنها "أجيزت بالإفتاء والتدريس" وكلمة "أجيزت" هذه تجعلنا نتوقف هنا حيث أن الإجازة بالإفتاء تشعرنا أن الإفتاء هنا هو عمل رسمى والفتوى رسمية وليست مجرد فتوى غير رسمية أو مشورة يصدرها أى شخص يتصف بالتقوى والعلم. فعائشة الباعونية هى أول واحدة بين المفتيات تأخذ فتواها صيغة رسمية وفى نفس الوقت هى آخر مفتية توصلنا اليها فى المصادر التاريخية، فبعد الباعونية فى القرن العاشر الهجرى لم نجد أى مفتيات فى السجلات التاريخية.

ومن كل ما سبق ذكره نلاحظ أنه حينما كانت الفتاوى غير رسمية بعيدة عن السلطة والقيود الرسمية رأينا تواجدا كبيرا للنساء فى مجال الإفتاء فكما ذكرنا سابقا أن معظم الصحابيات والتابعيات فى القون الأول للإسلام كن مفتيات يلجأ اليهن المسلمون فى مسائل دينهم ولكن بمرور الوقت وبالتدريج بدأ الإفتاء يرتبط بالسلطة ويأخذ صيغة أكثر رسمية حيث أن بعض العاملين بالإفتاء ارتبطوا بالإدارة القضائية فى الدولة الإسلامية غير أن الفتاوى غير الرسمية استمرت متواجدة يقبل عليها الناس، والمفتى المستقل عن الدولة ظل مصدرا هاما يلجأ اليه العامة. واستمر تواجد المرأة فى مجال الإفتاء إلا إنه لم يكن تواجدا واضحا وكبيرا مثل تواجدها فى القرن الأول للهجرة فلم يكن لها دور أو مكان فى الإفتاء الرسمى المرتبط بالإدارة القضائية مثلا وأخذ دورها هذا

يتقلص وينكمش مع مر العصور حتى اختفى تماما – كما هو واضح من الجدول – بعد القرن العاشر الهجرى. وقد كانت عائشة الباعونيـــة كمـــا ذكرنا سابقا آخر مفتية توصلنا اليها فى المصادر حيث أنه فى عهدها كان الإفتاء قد بدأ يأخذ الصبغة الأكثر رسمية التى أخذت تزداد تدريجيا حتـــى أصبح الإفتاء بمجيء القرن الثالث عشر كله رسميا لا مجال فيه للاجتهاد الشخصى أو العمل الفردى. فلقد بدأت الدولة العثمانية فـــى هـــذا القـــرن "بمأسسة الإفتاء" حيث قام السلطان العثمانى بإنشاء هيئة رسمية لإصـــدار الفتاوى يعمل بها موظفون حكوميون يرأسهم مراقـــب أو مشـــرف عـــام يعرف "بأمين الفتاوى" (Fetwa emini) وجميعهم يخضعون لسلطة "شيخ الإسلام" الذى كان يرأس الهرم الدينى فى الدولة العثمانية كلها.[1]

وإلى جانب الإفتاء هناك مجال دينى آخر عملت فيه المرأة وهـــو مجال الوعظ والارشاد. فالوعظ والإرشاد إلى الطريق المستقيم من أهـــم تعاليم الإسلام والواعظ من مسئولياته كما ذكرنا فى بداية البحث أن يذكر الناس بواجباتهم تجاه الله تعالى و يذكرهم بالعقاب وبغضب الله ويمنيـــهم بالثواب والجنة وقد أوضحنا أنه كانت هناك ثلاثة أنـــواع مختلفـــة مـــن الوعاظ: الواعظ الخطيب وهو من يعظ المسلمين من خلال خطبه الجمعة؛ الواعظ الذى يعظ المسلمين من خلال مجالس خاصة للوعظ أو من خـــلال حلقات العلم؛ ثم واعظ القص "وقارئ الكرسى". وقد كان للمرأة تواجـــد كبير فى مجال الوعظ باستثناء الوعظ من خلال خطبة الجمعة. والجـــدول السابق يوضح لنا أسماء عديدة لواعظات استطعنا حصرهن مـــن خـــلال المصادر، فسمراء بنت نهيك التى ذكرتها المصادر على أنها من "ربـــات الوعظ والإرشاد" كانت مثالا للمرأة القوية التى أخذت على عاتقها وعـــظ المسلمين فكانت تمر بالأسواق فى أيام الرسول (ص) تعظ الناس، تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتضرب الناس على ذلك بسوط كان معها (ابن عبد البر ١٩٧٢، جـــ٤، ص ١٨٦٣). هذا المثال الهام يوضح لنـــا أن الوعظ فى العصر الإسلامى الأول أيام الرسول (ص) كان يتم بالقول

---

١ ان ارتباط الإفتاء بالحكومة والدولة قد يكون هو السبب فى إننا لم نجد نساء مفتيـات فى الدولة العثمانية، فمنذ هذا العصر وحتى عصرنا الحديث والإفتاء أصبـــح عمـــلا حكوميا قاصرا على الرجال فقط.

Masud, *Islamic Legal Interpretation*, pp. ١١-١٢.

والفعل، فهى تعظ وتضرب من لا يتعظ ولكن بمرور الوقت أصبح ضرب من لا يأتمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فى الأسواق من اختصـــاص المحتسب "صاحب الحسبة".

فنجد أن كل النساء الواعظات اللاتى جئن بعد سمراء وحصرناهن فى الجدول كن يعظن بالقول فقط. فهناك ميمونه بنت ساقوله التى توفيـت سنة ٣٩٣هـ عرفت فى المصادر على أنها من "ربات الوعظ والإرشـاد" (كحاله، جـ٥ ص ١٤٠) ثم تنتقل بعد ذلك للقرن الخامس الهجرى الـذى ظهرت فيه خديجة بنت موسى بن عبد الله المتوفية سنة ٤٣٧ هـ وقـد عرفت فى المصادر "بالواعظة" وكذلك خديجة الشهجانيه التـى عرفـت أيضا فى المصادر بالواعظه (الخطيب البغدادى ١٩٣١، المجلـد ١٤ ص ٤٤٦) والماورديه وهى عجوز صالحة توفيت سنة ٤٦٦هـ وكانت تعـظ "النسوان" (الجوزى، صفة الصفوة، ص ٢٦٤)، هنـا نجـد تحديـداً أن وعظها كان للنساء فقط، بينما نجد واعظه مثل حمدة بنت واثق بن علـى بن عبد الله والتى ولدت سنة ٤٦٦هـ كانت لها شـهرة واسـعة فتعقـد مجالس للوعظ يحرص الناس "رجالا ونساء" على حضورها (الصفـدى، جـ١٣ ص ١٦٥). بعد ذلك ندخل القرن السادس الـهجرى فنجـد فيـه ياسمينه السيراونديه التى توفيت سنة ٥٠٢هـ وكانت مشهورة بـالوعظ وتفسير سور القرآن وأيضا زينب بنت أبى البركات البغدادية التى قـالت عنها المصادر إنها واعظه من واعظات القرن السادس الـهجرى تعـظ النساء فى رباط البغداديه (كحاله، جـ٥ ص ٢٩٥، جـ٢ ص٥٧). كذلك هناك زينب بنت معبد بن أحمد المروزى المعروفة بزين النساء والمتوفيه سنة ٥٤٣ هـ وقد ذكرت المصادر أنها كانت فاضلة فصيحة تعقد مجالس للوعظ ببغداد ومكة ولم تحدد المصادر اذا كانت مجالسها للنساء فقط ممـا يجعلنا نرجح أنها كانت لها مجالس مفتوحة يحضرها الرجال والنساء معا (الصفدى، جـ١٥ ص ٦٤). وأيضا هناك ضوء الصباح بنت المبارك بن أحمد بن عبد العزيز المدعوه "خاصة العلماء" البغداديـة توفيـت سـنة ٥٨٥هـ، وكانت واعظة معروفة بالصدق والصلاح تعقد مجلس الوعـظ فى رباطها مثل زينب بنت أبى البركات السالفة الذكر(الصفدى، جـ١٦ ص ٣٧٠).

وبعد ذلك تأتى شمس الضحى بنت محمد عبد الجليل البغدادية الواعظة المتعبدة المتوفية سنة ٥٨٨هـ، غير أن المصادر لم تفدنا بأية معلومات عن أين كانت تعقد مجالس وعظها ومن كانت تعظ (الصفدى، جـ١٦ ص ١٨٤)، ثم يعرض بعد ذلك الجدول لنا الواعظات اللاتى حصرناهن فى القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر الهجرى والمصادر هنا أيضا لم تأت بأى تفاصيل خاصة عن أين كانت تعقد مجالس وعظهن أو من كان يحضر هذه المجالس. لكن هناك تاج النساء بنت رستم بن أبى الرجاء الأصبهانى أم أيمن المتوفية سنة ٦١١هـ نسلط بعض الضوء عليها حيث أن هذه الواعظة كانت "شيخة الحرم" فى مكة (الصفدى، جـ١٠ ص ٣٧٤) وبالتأكيد أن منصب شيخة الحرم هذا كان يتطلب صفات خاصة ويفرض على صاحبته مسئوليات كبيرة. وهو منصب هام يجب أن يستوقفنا لأنه مرتبط بمكان مركزى فى العالم الإسلامى احتلت المرأة فيه سلطة دينية بينما لا نرى أية امرأة فى العصر الحديث على حد علمنا تتولى مثل هذه السلطة أى تنال هذه الدرجة الرفيعة فى مثل هذا المكان المركزى الهام فى قلوب المسلمين فى أى مكان. كذلك هناك واعظة أخرى مثيرة للاهتمام وهى زينب بنت فاطمة بنت عياش البغدادية المتوفية سنة ٧٩٦هـ والتى رأيناها فقيهة ومتفقهة ومفتية والآن نراها واعظة فاضلة وقد ذكرنا سابقا أنها ورثت العلم والاسم من والدتها الفقيهة المشهورة فاطمة بنت عياش البغدادية. (ابن حجر العسقلانى، جـ٣ ص ٢٦٦).

واذا عدنا إلى الجدول ونظرنا إلى الواعظات اللاتى تم حصرهن وترتيبهن ترتيبا زمنيا نلاحظ أن الواعظات على عكس المفتيات لم يكن لهن تواجد كبير فى العصر الإسلامى الأول ولكن زاد تواجدهن فى العصور الإسلامية الوسطى وقد يكون مرجع هذا إلى أنه فى أيام الإسلام الأولى لم يكن المجتمع فى حاجة إلى وعظ وقد رأينا كيف أن الصحابيات والتابعيات كن على درجة كبيرة من العلم والالتزام بالدين حتى أنهن كن يفتين فى أمور الدين والدنيا ويصدرن أحكاما محددة، ولكن بمرور الوقت عندما بدأت بعض أشكال الفساد السياسى والاجتماعى تتخلل المجتمع الإسلامى أدى ذلك إلى الحاجة لدور مكثف للوعظ الأخلاقى والدينى المباشر لأفراد المجتمع رجالا ونساء. غير أننا نلاحظ أن جدولنا توقف

عند القرن العاشر الهجرى حيث لم نستطع التوصل إلى واعظـــات فـــى القرون التالية ولم نجد فى المصادر أى تفسير لهذا الاختفاء أو الغياب إلا أننا أرجعناه إلى نفس أسباب اختفاء المفتيات من الساحة الدينيـــة. ففـــى أغلب الظن أن الوعظ مثل الإفتاء قد ارتبط بالســـلطة وأصبـــح الواعـــظ موظفا يخضع للحكومة أو الدولة مما أدى إلى انكماش دور الواعظ الحـــر الذى كانت تنتمى إليه الواعظات. هناك تفسير آخر لاختفـــاء الواعظـــات مرتبط بالسبب الأول. هو أن بعض الواعظات والوعـــاظ فـــى العصـــر المملوكى انحرفوا عن طريق الوعظ السليم وبـــدأت البـــدع والخرافـــات والأساطير تتسلل إلى مجالس الوعظ مما جعل الدولة تضع قيودا على من يزاول المهنة وجعلت الوعظ تحت سيطرتها وفى دائرة اختصاصها فظهر الواعظ الرسمى التابع للدولة المتحدث باسمها واختفـــى الواعـــظ الحـــر المستقل. (١)

و إلى جانب كل المجالات الدينية السابقة هناك مجال ديني آخر هام جدا برزت فيه المرأة، هو مشيخة الربط والزوايا وقد قدمنا فى بدايـــة البحث تعريفا بهذا العمل الدينى الهام، الذى هو عبارة عـــن إدارة هـــذه المنشآت الدينية والإشراف عليها و قد كان يطلق على النساء اللاتى يقمن بهذا العمل "شيخات". وإذا نظرنا إلى الجدول نجـــد أنـــه فـــى العصـــر الإسلامى الأول لم يكن هناك تواجد للمرأة شيخة الرباط فالنساء اللاتى تم حصرهن ينتمين كلهن إلى العصور الإسلامية الوسطى فى الفـــترة مـــن القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع الهجرى وهى الفترة التى انتشـــر فيها التصوف وانشأت الربط والزوايا فى العالم الإسلامى. وعلى الرغـــم من أن عدد النساء اللاتى استطعنا حصرهن فى هذا المجال قليل، إحـــدى عشرة امرأة فقط إلا اننا تمكنا من خلال هذا العدد أن نتعرف على صفات شيخة الرباط ونشاطها والمهمات أو المسئوليات التى كانت توكل إليـــها. فهؤلاء النساء كن كلهن تقيات ورعات عالمات صالحات خـــيرات يقمـــن جلسات لقراءة القرآن وتعليمه والتسبيح والذكر، يقضين وقتهن فى تعليـــم نزيلات الرباط ووعظهن هذا إلى جانب المسئولية الإدارية التى كن يقمن

---

١ تناول ابن الحاج بالنقد البدع والخرافات التى تسللت إلى مجالس الوعظ فى العصر المملوكى ونهى عن تحديث العوام بالأحاديث المبهمة وإدخال البدع والخرافات فـــى الوعظ الدينى. ابن الحاج – المدخل، جـــ٢، ص١٤٤-١٥٣.

بها أحسن قيام مثل توفير المأكل و الملبس و المأوى لمن يلجأ إليهن من الأرامل والعجائز والفقراء. هذا كله ينبهنا إلى القدرات الإدارية للنساء فى هذا العصر وقيامهن بشكل فعال وواسع الانتشار بالعمل الاجتماعى والتعليمى المتشابك. فالربط والزوايا و الخانقات كانت ملجأ للنساء اللاتى بلا عائل أو مال، كما كانت شبه مؤسسات تعليمية وتدريبية، و كان فى بعض الأحيان يتم تأجير قراء وحفاظ لحلقات تجويد وترتيل القرآن.

ومن خلال شيخات الربط اللاتى تعرفنا عليهن وجدنا أن بعضهن كن يقمن بإنشاء الرباط والإشراف عليه فى نفس الوقت و البعض الآخر يتولى فقط مهمة الإشراف. فهناك عائشة بنت على بن عبد الله بن عطيه الرفاعى المتوفية سنة ٨٣٧هـ أنشأت رباطا أسفل مكة يعرف بها ووقفت عليه دارا بباب الصفا مطلة على المسجد و فى نفس الوقت كانت قائمة بالمشيخة أحسن قيام (السخاوى، جـ١٢ ص ٧٧). وهناك أيضا بنت الخواص التى كان والدها قد بنى الرباط وسلمه إياها لتديره فأحسنت إدارته (السخاوى ١٩٨٦، جـ٢ ص ١٥٥)، كذلك عائشة بنت المستنجد الإمام المدعوة بالفيرورجية المتوفية سنة ٦٤٠ هـ قامت ببناء الرباط الذى عرف باسمها وأدارته (الصفدى جـ١٦ ص ٦٠٨). أما زينب بنت عمر كندى بن سعيد بن على أم محمد بنت الحاج زكى الدين الدمشقى فقد ذكر فى المصادر أنها بنت رباطا وأوقفت عليه أوقافا و لكن لم تذكر المصادر اذا كانت أدارته بنفسها أم تركت إدارته لشخص آخر (الصفدى جـ١٤ ص ٦٦). وإلى جانب النساء اللاتى قمن بإنشاء الربط وإدارتها هناك نساء قمن بإدارة الرباط بغير أن يكن صاحباته وهذا فى حد ذاته هام جدا ويدعو للتوقف، حيث أنه يبين لنا أن إدارة الرباط كانت وظيفة تتولاها أو تعين بها المرأة وليست مجرد عمل خيرى تطوعى تقوم به. وقد ذكرت المصادر أن زين العرب بنت عبد الرحمن بن عمر بن الحسين المتوفية سنة ٧٠٤هـ قد "تولت مشيخة رباط السقلاطونى" "وتقلدت مشيخة رباط الحرمين" بمكة (ابن حجر العسقلانى، جـ٢ ص ١١٧). وأيضا فائدة الشيخة المتوفية سنة ٨٢٧هـ "تولت مشيخة رباط الظاهرية أسفل مكة" وهو نفس الرباط الذى أنشأته عائشة بنت عبد الله بن عطية الرفاعى -المذكورة سابقا- وتولت مشيخته (السخاوى، ١٩٣٤، حـ١٢، ص ١١٤). وكلمة "تقلدت" أو "وتولت" تؤكد أن مشيخة الرباط

كانت وظيفة تتقلدها وتتولاها المرأة. ونجد أنه فى بعض الأحيان كـــانت المرأة تتولى مسئولية إدارة خانقتين أو رباطين فى آن واحد مثل فاطمـــة بنت قزيمران التى كانت شيخة الخانقتين العادلية والدجاجية معـــا وكـــان تديرهما بنجاح (الغزى، جـــ٢، ص ٢٣٨).

إن كل شيخات الربط والزوايا كن يقمن بدورهن على خير وجـه فكان لهذا أثر كبير فى الحياة الدينية والاجتماعية فـــى إعالـــة الأرامـــل والمطلقات والعجائز ووعظهن و تعليمهن أصول الدين. هذا الدور يمكن أن يكون موضوعا شيقا للباحثين فى المستقبل خاصة اذا تمت مقارنتـه بدور الراهبات فى أديرة أوروبا فى العصور الوسطى و مساهمتهن فى الحياة الدينية والاجتماعية هناك.

آخر المجالات الموجودة فى الجدول وإن كانت من أهم المجـالات الدينية هو العمل بالتدريس والتعليم وهو مجال كبير متعدد المســـتويات، فكما ذكرنا سابقا هناك مستويان للتعليم الإسلامى، تعليم أولى حيث يتعلم الصغار القرآن ومبادئ القراءة والكتابة ثم التعليم العالى و يكون منصبـا على دراسة الفقه وأصول الشريعة. سنركز هنا على المرأة الفقيهة التى كانت تدَّرس الفقه وليست المحدِّثة التى كانت تدّرس الحديـث (Makdisi 1981, 129). لقد كان للمرأة دور كبير فى التعليم على المستويين فمنـذ الأيام الأولى للإسلام والمرأة نشيطة فى مجال التعليم. رأينـــا كيـف أن الجيل الأول من الصحابيات وزوجات الرسول كن على علم واسع بـالدين يفتين ويعظن ويعلمن الناس. واستمر نشاط المرأة فى هذا المجال حتى رأيناها فى العصور الوسطى تمتهن مهنة التدريس بصورة أكثر رسمية. وإن كانت المرأة لم تعين فى أى منصب تعليمى فى المدارس إلا أن هـذا لم يقلل من قيمتها بل أضاف إليها احتراما ومصداقية أكثر حيث أن الناس فى هذه العصور كانوا يرون أن المناصب التعليمية و الاستفادة مـن الأوقاف الموقوفة عليها كانت تفسد العالِم أحياناً وتؤثر فى مصداقيته ولـذا كانوا دائما ينظرون إلى العالم الذى يتخلى عن منصبه فى المدرسة نظرة إجلال وتقدير (Chamberlain 1957, 140-143).

ولأن المرأة لم يكن لها منفذ إلى المدارس فقد كانت تعقد حلقات العلم والتدريس فى البيوت والمساجد يحضرها الرجال والنساء، فنجد فى كتب الطبقات والسير أن المؤرخين كانوا لا يجدون حرجا فى أن يقولوا إنهم كانوا يجلسون تحت أقدام النساء يتعلمون منهن و يستفيدون من خبراتهن (Tritton 1957, 140-143). ومن خلال المجموعة التى تم حصرها فى الجدول نجد أنها تنقسم إلى مدرسات يدرسن الفقه ومعلمات أو مؤدبات يعلمن القرآن ومبادئ القراءة والكتابة. وبالنسبة للمدرسات فمن الممكن أن تكون كل الفقيهات اللاتى تحدثنا عنهن من قبل قد عملن بالتدريس، فكل هؤلاء الفقيهات قد انتهين من دراستهن الفقهية ونلن حظا وافرا من الدراسة فى هذا المجال يجعلهن مؤهلات لتدريس أحكامه غير إننا وجدنا عددا قليلا ذكرت المصادر ذكرا صريحا أنهن قمن بعملية التدريس، ولذا وعلى الرغم من الميل إلى الاعتقاد أن معظم الفقيهات كن يدرّسن الفقه إلا أنه التزاما بما جاء فى المصادر ولتحرى الدقة والصدق لم نضمن فى جدول المدرسات سوى من ذُكر فعلا أنها كانت تدّرس الفقه. ونلاحظ من الجدول أنهن ينتمين كلهن إلى العصور الوسطى، الفترة التى تبلور فيها الفقه الإسلامى وأصبح علما واضح المعالم.[1]

والمدرسات التى تم حصرهن هن مولاة لأبى أمامة و هى غير معروف اسمها ولكن قيل عنها إنها كانت تدرس النساء "القرآن و السنة والفرائض والفقه" فى مسجد بحمص وهذا يدل على أن النساء إلى جانب عقدهن حلقات علم فى البيوت كن يقمن بالتدريس فى المساجد أيضا (الجوزى، جـ٢ ص ٤٥٣). وأيضا هناك الشيخه شهدة المعروفة بفخر النساء وقد توفيت سنة ٥٧٤هـ، وذكرت المصادر أنها كانت "تقيم حلقات ألحقت فيها الأصاغر والأكابر" (ابن خلكان، ١٩٤٨، جـ٢ ص ١٧٢). وفاطمه بنت أحمد السمرقندى الفقيهة الفاضلة التى قابلناها من قبل و قد تصدت لتدريس الفقه فى عصر الملك العادل نور الدين وعائشة الباعونية الفقيهة المفتية و الواعظة التى ذكر سابقا أنها "أجيزت بالتدريس". كذلك

---

١ Makdisi, *The Rise of Colleges*, p. 239.

يقول مقديسى فى كتابه: أن القرن السادس الهجرى / الخامس عشر الميلادى هو القرن الذى شهد تحول المذاهب الفقهية إلى مهنة محددة ومجالات احتراف تتدرج تحت الطوائف/ النقابات المهنية.

هناك بنت على النشار الفقيهة الشيعية التى توفيت سنة ١٠٣١هـ و كانت تدرس الفقه وتقرأ عليها النسوة القرآن (العاملى، جـ١٧، مجلد ١٤ ص١٦٩).

أما عن المعلمات فهن المسئولات عن التعليم الأولى بما فيه من حفظ القرآن ومبادئ القراءة والكتابة واذا كانت المعلمة تعلم بنات الأسر الغنية فى بيوتهن فقد كان يطلق عليها مؤدبة. ومن المثير للإهتمام أن التعليم على هذا المستوى كان مهنة أو حرفة تمتهنها المرأة وتتكسب منها فقد ذكر فى المصادر أن سيدة بنت عبد الغنى بن على العبدرى المتوفية سنة ٦٤٧هـ كانت عالمة فاضلة فى تونس وكان والدها "يهتم بتربيتها وتعليمها ليؤهلها لحرفة تعليم النساء فتؤمن بذلك مؤونة العيش" (الصفدى، جـ١٦ ص ٦٥). هناك أيضا عائشة بنت إبراهيم بن صديق وكانت تعلم النساء القرآن وقد انتفع بها عدد كبير من النساء (ابن حجر العسقلانى، جـ٢ ص ٤٣٥) وأم القاسم التى توفيت سنة ٨٦٠هـ وهى ابنة خالة والد السخاوى وقد قال عنها فى "الضوء اللامع" أنها كانت تعلم البنات (السخاوى، جـ١٢ ص ١٤٨). وأيضا أسماء بنت الفخر خالة القاضى نور الدين الصائغ وهى تنتمى الى العصر المملوكى حيث أن أسرة الصائغ كان لها باع كبير فى العلم و القضاء. ولقد كانت أسماء زاهدة "تلقن النسوة القرآن وتعلمهن العلم والقرب" (ابن حجر العسقلانى، جـ١ ص ٣٦٠). و كذلك أسماء بنت موسى الضجاعى التى توفيت سنة ٩٠٢هـ وهى من فواضل النساء كانت تقرأ وتعلم النساء القرآن وتعظهن وتؤدبهن (كحاله، جـ١ ص ٦٥).

وأخيرا وبعد العرض السابق للنساء اللاتى تم حصرهن فى مجالات العمل الدينى المختلفة يمكن أن نقول أن المرأة كانت نشيطة ولها دور فعال فى مجال العمل الدينى العام بكل فروعه فى العصور الإسلامية الأولى والوسطى. فقد رأيناها وعلى عكس ما قد يظن البعض فقيهة بارعة ذات قدرات عقلية وتحليلية واسعة. كما رأيناها مفتية ذات ملكة تقتدر بها على استنتاج الأحكام من أدلتها الشرعية فتصدر الحلول والآراء للمشاكل والخلافات الشرعية، وواعظة توجه النصائح والعظات للناس وتذكرهم بواجباتهم تجاه الله والمجتمع، وشيخة رباط أو زاوية ذات

قدرات إدارية عالية، وكذلك أيضا مدرسة ومعلمة نشيطة فى مجال التعليم على مستوياته المختلفة تدرس القرآن والسنة والفرائـــض والفقـــه. هـــذا كلـــــه يجعلنا نقول أن المجتمع الإسلامى فـــى العصـــور الإســـلامية الأولى والوسطى بتقاليده وعرفه لم يمنع النساء من التواجد والمشاركة فى مجال العمل الدينـــــى العام (وإن لم يشغلن مناصب القضـــاء والإدارات الرسمية) بل على العكس فإن هذا التواجد كان أمرا طبيعيا، وقد رأينا كيف أن المؤرخين والعلماء فى هذه الفترة المعنية كانوا يذكرون هـــؤلاء النساء دائما بألفاظ الاحترام والتبجيل يثنون عليهن و يعتبروهن مرجعا شرعيا فى كثير من الأمور دون تشكيك أو تعجب بل عن ثقه وتقدير.

هدى السعدى

الجزء الثانى

موضوعات للتحليل والمقارنة

١- إشكاليات نقدية فى تحليل تواريخ النساء فى العصور الوسطى :

حظيت مؤخراً الجوانب المختلفة من حياة النساء وطبيعة ظروفهن المعيشية والمهن التي عملن بها فى القرون الوسطى للغرب بصفة خاصة (تقريباً من القرن التاسع حتى الخامس عشر) على كثير من اهتمام الباحثين والمنظّرين وذلك فى ضوء مدرستين أو تيارين بالتحديد : الأولى هي قضية إعادة قراءة وتحليل التواريخ القديمة كنصوص تصويرية أو "تمثيلية" تكشف عن آليات التشكيل الاجتماعي والثقافي لأفراد وفئات المجتمع – وفى هذه الحالة هن النساء – وهو ما يعرف بحقل دراسات "التاريخانية الجديدة" أو "التاريخ الثقافي الجديد" (Bynum 1992 و Berkhofer 1995 و كوثرانى ٢٠٠١)؛[1] والتيار الثاني : هو مدارس النظريات النسائية التي عكفت على التنقيب فى مصادر معروفة و غير معروفة عن تفاصيل حياة النساء فى الحقب الماضية لإلقاء الضوء عليها وإعطاءها مركزية جديدة تثبت حضورهن الفعال والإيجابي فى مجالات مختلفة حتى فى تلك العصور السحيقة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تطوير الأطر التحليلية والنظرية المستخدمة حتى الآن والتي كان يتم من خلالها دراسة هؤلاء النساء وهذه المصادر، وذلك من خلال منظور جديد لإعادة تحليل وتفسير هذه المادة. أي أن أهمية دراسة تاريخ النساء فى العصور الوسطى بالنسبة للمدارس النسائية الحالية تكمن فى ثلاث نقاط :

أ. هي تكشف الحضور التاريخي الإيجابي للنساء على نحو يتحدى الأطر التقليدية المعتادة التي عادة لا تدمج أنشطة النساء إلى جانب أفعال الرجال فى التواريخ الرسمية العامة وافترضت أن التاريخ القديم خاصة صنعه وتحكم فى مسيرته رجال الدولة والسلطة أو علماء الدين.

---

[1] أنظر خاصة كتاب: روبرت بركهوفر *Beyond the Great Story*، وفيه دراسة تفصيلية متأنية حول المفهوم الجديد للنقد التاريخى فى ظل مدارس ما بعد الحداثة.

ب. يجد المؤرخون المحدثون لدهشتهم أن كلاً من الرجال و النساء فى القرون الوسطى يظهرون "طبيعة" إنسانية مختلفة ومغايرة عما يفترضه وعينا "الحداثى" عن الطبيعة الأزلية الثابتة للذكورة والأنوثة أو للرجال والنساء ، كما يكتشفون أن حدود المسموح به اجتماعياً وثقافياً فى مجالات كثيرة من الحياة لم تكن مرسومة بالصرامة والجمود الذي نتخيله عن هذه العصور أو حتى مقارنة بنفس تلك الحدود فى عصرنا الحديث. وهذا بدوره يعضد النظرية السائدة حالياً أن منظومة العلاقات بين الجنسين وطبيعة كل منهما وأدوارهما يتم تشكيلها ثقافياً واجتماعياً وأنها تغيرت فعلاً على مر القرون والعصور – خاصة فى الغرب الأوروبي. ومن هنا تتغير الثوابت والفرضيات التاريخية مما يدفع الباحثين إلى إعادة تقييم هذه الافتراضات حول الماضي وربما حول الحاضر أيضاً (Stuard 1978).

ت. والمجال الثالث الذي تفيد فيه دراسة هذه القرون الوسطى هو مجال دراسة الحيز العام والحيز الخاص بالمجتمع ، فقد ظهرت دراسات عديدة فى الغرب تعيد النظر فى مسميات العصور التاريخية فى أوروبا مثل "عصور الظلام" أو "عصر النهضة" أو "العصر الحديث" وكذلك مسار الحضارة الغربية نفسها ، فربما لم تكن عصور "ظلام" كامل بالنسبة للنساء فى أوروبا اللاتي فُتحت لهن فرص التدين الجماعي أو الفردي والتصوف وكتابة المذكرات والإلهامات الصوفية والكشفية، وربما لم تكن هناك "نهضة" لهن فى القرون التي تلت بدءاً من القرن السادس عشر عند بدايات تغير وسائل الإنتاج والاستهلاك بلوغاً إلى الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر وما تبعها من تشكل السوق وآلياته وحركته منفصلاً عن مجال الأسرة الخاص (Buchanan 1996; Stuard, 7).[1] وقد رصد الدارسون و المحللون

---

١ عند الاطلاع على معظم الدراسات الغربية الحالية لثقافة وتاريخ ما قبل الثورة الصناعية والتحديث فى القرن الـ١٩، نجد إجماعا على أن النساء فى الغرب فقدن الكثير من حقوق المشاركة فى العمل العام وأعمال التجارة والزراعة والحريات فى مجال الدين وخلافه منذ تبلور العصر الفيكتورى بإنجلترا مثلا، والقيود التى تم فرضها فى ذلك الحين بسبب الانفصام الذى حدث وقتها بين الحيز العام والحيز الخاص والذى لم تعرفه العصور الوسطى بهذه الصرامة، فلا نجد هناك من يعتبر "خروج" أو "تجاوز" النساء لمجالهن الطبيعى عندما كن يشتغلن بالتجارة والربح، على

أن هذه هي بدايات تقسيم العام والخاص فى التاريخ الأوروبي الذي تبعه تحجيم دور النساء فى دائرة الخاص -أى المـــنزل والعائلـــة والأطفـــال والخدم- وقصرهن على هذا المجال فقط ، فى مقابل ارتباط الرجال بالعام وأعماله فى المجتمع الخارجي : أي ما هو أصعب وأقيم وأكـــثر تمـــيزاً وسيطرة.[١] واستمر هذا التطور حتى بلغ ذروته فى العصر الفيكتـــوري ببريطانيا (ق١٩) الذي روج لمفهوم "المرأة أو الأنثى الحقيقية" تكريســـاً لأنماط معينة من السلوك الأنثوي أو الشخصية النسائية الحقة و عمادهـــا المثالية الأخلاقية التي تصحبها سمات الســـلبية والخضـــوع والضعـــف والاستسلام والقدرات العقلية المحدودة.[٢]

ونلحظ تطوراً مماثلاً فى مجال الدراســـات التاريخيـــة للشـــرق الأوسط حيث ظهرت مؤخراً العديد من الأبحاث القيمة التي تركز على تاريخ النساء فى المجتمعات الإسلامية والعربية قبيل العصـــــر الحديـــث بصفة عامة ، والتي أثبتت وجود مساحات واسعة من الحركة والفعالية فى المجال العام وكذلك ممارسة الحقوق القانونية الشرعية ، تقلصـــــت مـــع بدايات "التحديث" الذي صاحب فكرة "الدولة القومية" بأطرهـــا وأنســـاقها الإدارية والقانونية والاجتماعية والسياسية الصارمـــة محاكـــاة للنمـــوذج الغربي لمؤسسات الدولة الحديثة. وتمثل أعمال هامة مثل دراسات أمـــيرة سنبل وعفاف لطفى السيد مارسو ونيللى حنا وجوديث تاكر ونيكى كدى وبث بارون (انظري قائمة المراجع) هذا الاتجاه نحو إعادة النظر فى افتراضات الركود والتخلف فى فترات معينة من تاريخنا مثل العصر

عكس التحجيم الذى تلى هذه العصور وترويج أفكار الخضوع النفسى والمعنـــوى للنســـاء واعتمادهن على الغير.

١ انظر كتاب (1977) *Becoming Visible: Women in European History* حيث تعطـــى المقدمة مسحا للتطورات التاريخية التى مرت بالمرأة فى أوروبا، وتخلص المؤلفة إلـــى أن هذا الانفصام الذى أحدثته الثورة الصناعية أدى إلى تقلص الدور الإنتاجى للنساء خاصة فى الطبقة المتوسطة وحصرهن فى المجال الأسرى الخاص حيث المسئولية الرعائية والعاطفية البعيدة عن أعمال ومهن الحياة العامة خارج المنزل التى تخص الرجال فى الأساس.

٢ هناك تكهنات عن الصلات بين هذه المفاهيم فى التراث الغربى الحداثى وخارجه، وكيفيـــة انتقالها إلى المجتمعات العربية الإسلامية فى هذا الوقت عندما كانت مستعمرة ثم اســـتيعابها أو استبطانها لدى النخب الثقافية ودعاة التنوير "الحداثى" الذين كرســـوا لمفـــاهيم الحداثـــة الغربية برمتها وتحدثوا عن طبيعة النساء الثابتة وهى طبيعة وعقلية دونية تملى على المرأة سلوكا عاطفيا بحتا.

العثماني بداية من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشـــر وبدايـــة حكم محمد على فى مصر.

وتوضح أميرة سنبل (١٩٩٦/١٩٩٩) [١] السبب فى مثـــل هـــذه الافتراضات والتعميمات: "لقد تسبب تصور الحقبة الحديثـــة علـــى أنـــها طرف النقيض للحقبة "التقليدية" فى حـــدوث ســـوء فـــهم للعديـــد مـــن موضوعات تاريخ المرأة المسلمة ، وقد تميزت الأبحاث التـــي تتنـــاول تاريخ المرأة فى الشرق الأوسط فى عصوره الأقدم بندرتها ، وذلك نظـراً لتركيز اهتمام تلك الدراسات على العصر الحديث، فالمؤرخون النســويون يفضلون التركيز على دراسة دخول التحديث إلـــى المجتمعـــات الشـــرق أوسطية" (ص١٤). وتثبت دراسات أميرة سنبل فى مجال قوانين الأســـرة والطلاق خاصة أن رغم التغيرات الظاهرية لوضع المرأة المسلمة التـــي جلبها التحديث إلا أن "المرأة فى المجتمع الإسلامي التقليدي كانت نشـــطة إلى حد بعيد واشتركت فى اتخاذ القرارات المتعلقة بالأحوال الشـــخصية والقانونية ... والعلاقات الاجتماعية والعلاقات بيـــن الجنســـين" ، وأن التحولات التاريخية الحداثية فى القرنين الأخيرين "قد تسببت فى تدهـــور القدرة على النشاط الاجتماعي خاصة بالنسبة للمرأة ... ففـــى خـــلال عملية بناء الدولة القومية امتدت يد الدولة إلى الأسرة وقوانين الأحـــوال الشخصية فوضعت لها المعايير وأصلحتها وحدثتها مما كـــان لـــه أثـــرة العميق على أحوال النساء" (ص١٩).

إن إعادة اكتشاف المجتمعات العربية والإسلامية مثل مصـــر أو غيرها بفئاتها المختلفة – خاصة النساء – يعد خطوة على طريق فـــهم الواقع الحالي ونشأة العصر الحديث فهماً يستند إلى حركة ذلك التـــاريخ ، فيفسر لنا مثلاً الدكتور رؤوف عباس معضلة إهمال التـــاريخ العثمـــاني واتهامه بالاضمحلال والتقليدية الانعزالية على يد المدرسة الاستشـــراقية فى مقدمة ترجمته لكتاب نيللى حنا تجار القاهرة في العصـــر العثمـــاني (١٩٩٧) : "إن المجتمعات يمكن أن تتطور وفق سياق تاريخي مختلـــف عن النهج الغربي ، كاشفة عن فساد الاستنتاجات التي توصل إليـــها

---

١ الإستشهادات المستخدمة هنا من الترجمة العربية لكتاب النساء والأســـرة وقوانيـــن الطلاق(١٩٩٩)، مراجعة وتقديم رؤوف عباس، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

المستشرقون فى دراساتهم حول العصر العثماني عامة ، وتطور مصر فى ذلك العصر خاصة ... (تأكيداً) أن الثقافة الوطنية العربية الإسلامية توفرت لديها فى هذا العصر مقومات التطور وأن قدوم الغرب لم يكن بعثاً للحياة فى مجتمعاتها وإنما كان من معوقات تطورها" (ص١٥). ففي هذا الكتاب تعيد المؤلفة تكوين سيرة شاهبندر التجار فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر من شتات ما جمعته من سجلات المحكمة الشرعية، فتنقل بذلك صورة حية للواقع الاقتصادي وكذلك الاجتماعي لهذه الطبقة فى ذلك الوقت، وتثبت بالدليل أن التعميمات حول الانفصال الكامل بين المجالين العام والخاص لا يُعتمد عليها: "فلم تكن الحركة منقطعة بين المجال الخاص والمجال العام، ولم تكن الحواجز منيعة بين المجالين، فبين الأبيض والأسود كانت هناك دائماً مساحة واسعة للظلال الرمادية واعتمدت الحركة بين المجالين على اختلاف المعايير والظروف" (ص٢٣٢)؛ ولم تعش النساء منعزلات بل تولين إدارة شئون أعمالهن وأمور أملاكهن ونظارة أوقاف العائلة أو إنجاز بعض الأعمال فى المحكمة ، ولم تكن هناك حواجز معينة تفصل بين مساكنهن وبعضها البعض أو بينها وبين ما يقع خارج البيت: "وهكذا نجد أن كلمة الاحتجاز (أو العزلة) التي يستخدمها الباحثون كثيراً عندما يتحدثون عن الزوجات فى مجتمعات الشرق الأوسط ، التي تحمل مضموناً يشبه الاعتقال ، كلمة مضللة، عندما ننظر إلى الوضع عن قرب. فرغم تمحور الحياة العائلية حول البيت، ارتبطت النساء بالمجتمع الخارجي بروابط عدة. والواقع أن وضع نساء القاهرة كان أفضل مقارنة بوضع النساء الفرنسيات أو الإنجليزيات المعاصرات لهن . وعلى سبيل المثال كانت المرأة الإنجليزية – فى عصر ستيوارت – تفقد حقها فى الملكية بمجرد زواجها ويقوم زوجها بكل ما يتعلق بها من أعمال فتصبح عالة عليه تماماً ، لأن الزواج يحولها – من الوجهة القانونية – إلى قاصر. ولم يكن وضع المرأة فى فرنسا قبل الثورة أحسن حالاً حيث كان الزواج يعطى الزوج حق الولاية التامة على أملاك زوجته" (ص٢٣٥).

وحتى بعد هذه الفترة بنحو قرن ونصف من الزمان – أي أواخر القرن الثامن عشر قبيل مجيء محمد على إلى حكم مصر – كان للنساء دور بارز فى الأعمال المالية، وتوضح دراسات عفاف لطفى السيد

مارسو(١٩٩٥) لهذه الحقبة وأوضاعها الاقتصادية اللامركزية أن نشـــاط المرأة التجاري والاستثماري للأرض الزراعية (خاصة امـــرأة الطبقـــة المتوسطة البرجوازية) كان فعالاً ويمتاز بالحرية والاستقلالية التي حرمت منها بعد ذلك، وحتى دور النساء من الطبقة العاملة الشـــعبية كمـــورّدات للبضائع تم تحجيمه بسبب طغيان بضائع مستوردة بديلة وأنساق أوروبيـــة للحياة والمتاجر وسوق العمل. فالقدر الكبير الذى كانت النساء يمتلكنه من حرية التصرف فى أموالهن وثرواتهن وتجارتهن بلغ بهن حداً من التمكن والسيطرة تم اختفاؤه تماماً فى العصر الحديـــث إبـــان ســـيطرة النســـق الاقتصادي المركزى والقيمى للاستعمار البريطانى: "فبعد انتهاء القـــرن (التاسع عشر) وفرض الاستعمار الإنجليزى سيطرته على مصر، تفـــاقم الوضع الهامشى لامرأة الصفوة مع هيمنة الفكرة البريطانية عن الأنثـــى بأنها "سخيفة" و"عاطفية" و"لا منطقية". وقد قلد الرجل المصـــري ســـيده البريطاني فى ذلك التصور الذي وجده مقنعاً " (عفاف لطفـــي الســـيد مارسو في كتاب النساء والأسرة وقوانين الطلاق، ص٥٧.)

وفى اعتقادى أن هذه الصورة تنطبق كذلك بصفة عامة على مـــا يسمى بالعصور الإسلامية الأولى والوسطى بدءاً مـــن الدولـــة الأمويـــة والعباسية وحتى العصر المملوكى فى مصر والشام فى القـــرن الخـــامس عشر والسادس عشر والتي هي محور هذه الدراسة. وتنتمي أبحاث هـــدى لطفى لهذه الحقبة، ولكنها تعتبر من الدراسات التاريخية القليلة التي تســـلط الضوء تفصيلياً على تاريخ النساء فيما قبل الحداثة بقرون عدة من خـــلال المصادر المهملة، منتبهة إلى المساحة الواسعة التي كانت تشغلها النســـاء فى الحياة العامة واختلاف المعايير الاجتماعية التي تحكم حيـــاة الرجـــال والنساء.

إلا أنه لا تزال هـــذه الحقـــب التاريخيـــة -العصـــور الأولـــى والوسطى- تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتنظير. مثلاً إذا كـــانت هـــذه الأبحاث -ومنها البحث الحالي حول الفقيهات والمفتيات- تثبت مســـاهمة النساء فى الحياة الفكرية والدينية للعصور الإسلامية الوســـطى ممـــا لـــم يحدث فى القرون التالية حتى العصر الحديث، فهذا يتحـــدى الزعـــم أن النساء والرجال قد حظوا دوماً بفرص متكافئة متساوية فى الحياة الثقافيـــة

العامة أو التعليم أو الكتابة فى العلوم الدينية ، أو أن السبب يرجع إلى تقصير النساء وطبيعتهن وصعوبة التفقه فـــى الديـــن بالنســـبة لـــهن أو مشروعية الدخول فى نقاش ديني متخصص. فكيف يحققن مكانة عالية كمرجعيات دينية علمية فى عصر ما ثم لا يظهرن منذ ذلك العصر حتى الآن؟ هذا يدعو لدراسة المتغيرات التاريخية وتأثيرها على النساء و"النوع" من العصور الإسلامية الأولى إلى المملوكية إلى العثمانية ثم إلى العصـــر الحديث أثناء فترة الاستعمار وما بعده. إلا أنه من المعروف أن صعوبـــة العثور على وثائق وكتابات فى التراث الإسلامي من هذه الحقبة كتبتـــها النساء أنفسهن فى مقابل المادة التاريخية التي تصلنا عن مشاهير وأعـــلام النساء المكتوبة من قبل مؤرخين رجال ينقلون إلينا على لسانهن ما قلنـــه وكذلك أشعارهن وآثارهن لا تشجع الكثير من الباحثين على إنتاج مـــادة معرفية جديدة فى هذا المجال.

وهنا على الباحثة أن تختار بين نظريتين:

أ. اعتبار هذه النصوص أمثلة لتصورات ثقافية واجتماعية عـــن النســـاء أنتجها الكتاب، بصرف النظر عن إذا كانت هذه النصـــوص انعكاســـاً حقيقياً لأحداث تاريخية دقيقة و صحيحة، فيهتم هذا المنهج بتطبيق منظور جديد فى التعامل مع المصادر المعروفـــة واكتشـــاف معـــان ودلالات جديدة فى النصوص القديمة. وتتبنى معظم الأبحاث الغربيـــة هذه النظرة الآن، سواء التي تتناول تاريخ النساء الأوروبيات (مثل دراســـات Susan Stuard و Caroline Bynum) أو التي تتناول النساء فى الشرق الأوسط (مثل كتاب دنيز ســـبلبرج Deniz Spellberg المشهور عن عائشة بنت أبى بكر (١٩٩٤) وكتاب فدوى مالتى دوجلاس Fedwa Malti-Douglas عن صورة المرأة عـــبر التاريخ الثقافى العربى الإسلامى ١٩٩١). فتتبهنا ســـتيوارد Stuard مثلاً فى مقدمة كتابها عن إشكاليات التأريخ لنساء الغرب فى القـــرون الوسطى إلى أن أفعال وأقوال هؤلاء النساء تصلنا فى سجلات التاريخ عبر تصورات وكلام المؤرخين والكتاب الرجال، ولذا يجب التركـــيز على "فهم أولئك المؤرخين، ومتى يتقنون إحكام الصورة التاريخية، أو متى يتجاهلون الأدلة، أو متى يجسدون ويشكلون مفاهيمهم المعـــاصرة

وتصوراتهم الشخصية – التى هى انعكاس لثقافاتهم– لموضـــوع مـــا" (ص١٥).

ب. أما المنهج الثانى فهو لا ينفى إشكالية "التكلم البطنـــى" وهـــي الســـمة الرئيسية لهذه النصوص القديمة وكمـــا شـــرحتها هـــذه الباحثـــة: "إن أصوات أو أحاديث النساء فى هذه الأحوال هي أحاديث غير قاطعة وملتبسة، فهذه الشخصيات صحيح أنها لا تتحدث كلية بالنيابة عن ذات الكاتب فقط حيث أنها أيضاً تجسد مفاهيم وتصورات ثقافية جماعيـــة ، ولكن فى نفس الوقت لا نستطيع أن نضخم من حجـــم وقيمـــة هـــذه الأصوات باعتبارها الأصوات الحقيقية/الفعلية المهمشة من المـــاضي" (Evans 1994, 2). أي بالرغم من الشكوك المحيطـــة بالســـجلات التاريخية للنساء فإن استعادة أصوات وأحاديث وأدبيات النساء المتناثرة فى الموسوعات و كتب المؤرخين خطوة هامة فى إبراز ثم دمج مساهمات النساء التاريخية فى الذاكرة الثقافية الجماعية.

وتعبر مهجة كهف عن هذا المأزق عندما تقول : "هل نحن فى هذه العصور الإسلامية المبكرة بصدد قـــراءة الكـــلام الفعلـــي للنســـاء المسلمات الأوليات بدون تحريف أو تدخل، أو أنه كلام فى معظمه ملفق من قبل الكتاب الرجال والمؤرخين؟" ثم تقول إن معظم الدراسات العربيـة تفترض الرأى الأول قطعياً وتفترض معظم الدراسات الغربيـــة الـــرأى الثانى قطعياً، بينما تعتقد هي أن تفسير أى من الرأيين منفرداً غير كـــاف وترد بتساؤل هام: لماذا يصعب على الباحثين أن يصدقوا صحـــة إبـــداع النساء لكلام أو أحاديث وبلاغات معينة ويشككون فى قدراتـــهن ، بينمـــا يقرون بمجهودات الرجال فى التدوين والنقل والإبداع؟ وهكذا يرفض هذا الاتجاه المنهج الأول فى البحث الذي يعتبر هذه النصوص **برمتها** مجـــرد تصويرات وتخييلات ذكورية عن هؤلاء النساء أو تلفيقات على لســـانهن، بل يرى إمكانية غربلتها واستخراج آثار لخطابات النساء أنفسهن فى المجالات الأدبية والشعرية أو الدينية الصوفية أوالسياسية. وتطلق مهجـــة كهف على هذه الأدبيات "الآثار الخطابية للنساء" (Webb 2000, 150-152). لابد إذاً من اعتبار دراسة آثار الفقيهات والمفتيـــات والمحدثـــات والمتصوفات ممن برزن فى الحياة الدينية العامة هي محاولة استعادة هـذا الجزء الهام من تاريخ النساء فى الثقافة أو الحضارة الإسلامية.

والمناقشة التي أسلفت تثبت فائدتها عند تأمل ما عرضناه من التاريخ المنسى لفئات كاملة متعددة ومتنوعة من النساء اللاتي اشتغلن بالعلوم الدينية والفقهية والفتاوى الشرعية ، حيث من الممكن أن نحلل سيرهن من الوجهتين معاً : استعادة هذه الخطابات النسائية وفي نفس الوقت الأخذ فى الحسبان تصورات المؤرخين الثقافية و الاجتماعية فى سياق عصورهم عند إنتاج هذه الأعمال والتواريخ عن النساء العالمات.

٢- البعد المقارن والحياة الدينية للنساء في أوروبا :

ما فائدة المقارنة هنا بين تاريخ الحياة الدينية العامة للنساء فى المجتمعات الإسلامية ونظيرها لدي النساء فى أوروبا فى العصور الوسطى المسيحية؟ يندرج هذا الاتجاه البحثي تحت الاهتمام الحديث الذي ذكرناه عن العلاقة بين النساء فى مختلف المجتمعات والثقافات بتراثهن الديني ، ويتحقق ذلك من خلال المقارنة بين التواريخ المختلفة لاستكشاف الخيارات المطروحة لدى النساء من داخل كل تراث: أى ما هي جوانب الحياة الدينية المتاحة لهن وهل هى متاحة بدرجة مساوية ونسب متكافئة ؟ وما هي المجالات الأخرى الممنوعة عنهن؟ ثم يتم استخدام هذا المعيار كعنصر تحليلي وأداه أولية للمقارنة حيث تكون نقطة الالتقاء هي التركيز على المشاركة الفعالة للمرأة وتواجدها كعنصر عامل فى التاريخ أو كصانعة تاريخ وليس فقط كرمز أو كائن سلبى، فهذا المنهج لا يقارن الأديان من حيث "الرموز الدينية للأنثى" أو "الصور الأنثوية" التي أفرزتها قريحة العلماء والكتاب. ومن الطريف أن بعض الدراسات الغربية المهتمة بهذا المنظور ترتب الأديان وتراثها على حسب تدرجها لتحديد أكثر النظم أو أقلها قبولاً ودمجاً لأنشطة النساء الدينية. وفى مقدمة كتاب النساء فى ديانات العالم (Sharma 1987) تقترح كاثرين يونج ترتيباً يضع الإسلام فى المرتبة الرابعة بعد اليهودية والهندوسية والكونفوشية فى خلو تراثه من الوجود الفعال للنساء ، ثم تعدل ريتا جروس Rita Gross فى النسوية والدين (١٩٩٦) من هذا الترتيب لزحزحة الإسلام إلى المرتبة الثالثة بعد اليهودية ثم الكونفوشية، وتقول أنه يجب أن يحتل أدنى المراتب

مع هاتين الديانتين فى قبول استقلال المرأة وتحقيق وجود نسائي حقيقـي. ثم تعود لتقرر فى موضع آخر أن المسيحية والبوذية اكتسبا سمعة سـيئة يستحقانها بسبب النظرة السلبية للمرأة باعتبارها "أقل روحانيـة وأكـثر مادية من الرجال" (ص٩٣). وقد يختلف بعضنا مع هذا التقييم أو ذاك أو هذه الاستنتاجات التعميمية ، المـهم هـو أن السـبيل إلـى دحـض أي استنتاجات مثل هذه يكون بالدراسات عبر الثقافات وبتجاوز التراث الواحد لقياس الدرجات المتفاوتة أو المتقاربة والمتشابهة لدور النساء. و تعلـق الباحثة أوروسلا كنج (King 1995) أن مثل هذه الدراسات المقارنة قـد أثبتت أن وضع المرأة فى أية ديانة أو عقيدة هو عادة انعكاس ولو غـير مباشر لحالة النساء فى ذلك المجتمع، فقد أشار علماء الاجتماع مراراً إلى أن النظم الدينية والعقيدية "تعكس كما تعيد ترسيخ القيم الثقافية والأنمـاط السلوكية الاجتماعية" داخل أي مجتمع (ص١٥).

وهذه قضية لم يحدد معظم الباحثين موقفهم منها حتى الآن. فهناك فريق مثل الرأي السابق الذكر يرى أن هناك تطابقا شبه كامل بين المفاهيم الثقافية / الدينية السائدة فى مجتمع ما عن المرأة ووضع المـرأة الفعلي فى هذا الواقع الاجتماعي ، فإذا كانت المفاهيم والصور والرمـوز السائدة فى عصر ما سلبية ومنحازة هذا يعني أن حال النساء فـى ذلـك العصر كان سيئاً للغاية. ولكن الفريق الأكبر من الدارسين – خاصة قطاع كبير من الباحثات النسويات حالياً – بدأن فى إعـادة النظـر فـى هـذه الفرضية عندما وجدن أنه رغم تأثر حياة النساء بمثـل هـذه المفـاهيم والصياغات إلا أن هذا لا يعطينا الصورة كاملة ، فكيف نفسر وجود نساء فى هذه العصور استطعن أن يتحكمن فى شكل حياتهن ويقمـن بـأدوار إيجابية مما يتناقض مع صورة السلبية والخضوع التام التـي افترضتـها وشكلتها نظرياً الثقافة من حولهن. ومن الدراسـات المهمـة فـى هـذا المضمار فى التراث الغربي فـي النـوع والديـن : إشـكالية الرمـز (Bynum1986) لمجموعة من الباحثات والباحثين الذين نبهوا إلى أنـه فى أحيان كثيرة لا تعكس أو لا تتطابق الرموز الثقافيـة الدينيـة حـول الذكورة والأنوثة مع كل الأنماط الاجتماعية الفعلية على المستوي اليومـي المعاش. بل تزعم كنج أن هناك عادة علاقة عكسية بين هذين القطبيـن : كثرة الرموز والصور المجازية "للمؤنث" فى الخيال الديني لدي تراث ما

يقابلها أوضاع اجتماعية متدنية للمرأة ومعاملة سيئة للغاية فـــى الواقـــع الأسري والحياة الدينية العامـــة أي علـــى المســـتوي العملـــي المعـــاش (ص١٦).[1] وهذا ما توصل إليه البحث الجديد فـــى كـــل مـــن الـــتراث المسيحي والإسلامي بالعصور الوسطى وما قبل الحداثـــة ، فالدراســـات الغربية بدأت تؤكد على الأدوار القيادية المستقلة التي مارستها المرأة فى بداية العهد المسيحي تجسيداً للقيم التحررية الكامنة فى الرسالة المســـيحية الأصلية فى مقابل القيود الكثيرة التي فرضها عليها النظام الأبوي الصارم للمؤسسة الكنسية. ويجد الباحثون بالفعل شـــخصيات نســـائية فـــى هـــذه العصـــــور - خاصة الراهبات والزاهدات (الناسكات) والمتصوفـــات- اتسمت بالاستقلال الذاتي والسلطة المعنوية المبنية على التفـــرد والنبـــوغ الروحي.

سنحاول هنا تقديم عرض سريع لأدوار النساء فى الحياة الدينيـــة تركيزاً على الفترة التي تسمى بمنتصف العصـــــور الوســـطى (ق١٢ - ق١٥) ، وهذا معناه الأدوار التي تبلورت تحت رعاية الكنيسة الرسمية أو خارجها وهذا مجال المنشقين عنها. بالنسبة لنشاط النساء فى كنف الكنيسة فالمعروف من المصادر أنهن لم يشتغلن بمهن دينية داخل هذه المؤسسة ، فلم يشغلن مناصب بها وكن ممنوعات من العمل كقساوســـة ممارســـين للطقوس والصلوات العامة ، ولذا فالأنشطة الدينية بالنسبة لهن كانت فى الأديرة كراهبات حيث توافر لهن قدر من التمكين الذاتي حتى لـــو مـــن داخل المؤسسة الرسمية. ويري بعض البـــاحثين أن البيئـــة المحيطـــة أو السياق الثقافي المعادي للمرأة والذي دأب على التحقير من شأن الجنـــس النسائي كله جعل الوصول إلى السماء - أى الخلاص الروحى- أصعـــب فى حالة النساء عنها فى الرجال ، فكان على المرأة أن تتجاوز طبيعتـــها

---

١ مثال على ذلك أن الصور والرموز "الأنثوية" و"الأمومية" للســـيد المســـيح (التـــى سنشير اليها لاحقا) والتى استخدمها رهبان رجال أيضا وراهبات، وكذلك مذاهـــب التمحور حول شخصية السيدة مريم العذراء رمـــز الطـــهر والســـمو؛ كـــل هـــذه التصورات الأدبية الإيجابية لم تنجح فى إزالة المعوقات الفعلية العمليـــة لإشـــتراك النساء رسميا فى الحياة الدينية العامة والكنيسة. وفى نفس الوقت مذهـــب "المـــرأة الحقة" الذى ظهر فى القرن الـــ ١٩ بأوروبا وأمريكا وفيه أفاض العلماء فى خلـــق تصور للمرأة العفيفة المثالية فى أخلاقها ووداعتها جاعلين منـــها رمـــز الرعايـــة والعطف لم يمنع من اعتبارها تافهة وسطحية واعتبار رقتها لا تجعلها تتحمل أيـــة علاقة جدية بالعالم الخارجى من أعمال وتعليم عال.

"الآثمة" المتأصلة كما تم تصويرها فى الثقافة السائدة وأن تبذل ضعف الجهد فى مجال إثبات النفس والجدارة فى التواصل مع الله (سبحانه)، ولهذا راجت فرص اختيار الحياة الدينية الخالصة فى الأديرة فوهبت النساء حياتهن لله وللتفرغ والتعبد الدؤوب؛ هذا من ناحية الدافع الديني ، أما من الناحية الاجتماعية فإن حياة الدير ربما كانت وسيلة للهروب من وضعها الدونى فى الزواج ومن الخدمة الأسرية الشاقة والمخاطر الصحية للإنجاب (Larrington 1995, 115).

ومن مميزات الحياة داخل الدير الحصول على تعليم مناسب ومعرفة جيدة للقراءة والكتابة – مما لم يتأت لغالبية نساء العصور الوسطى خارج الكنيسة – وفرصة لقراءة الكتب الدينية ووجود المواد اللازمة لتدوين بعض الكتابات أنفسهن. وباستثناء راهبتين معروفتين بالاسم هما هيلدجارد بنجن وهراد لاندزبرج فى القرن الثاني عشر اللتين تعدت كتاباتهما المواضيع الدينية ، فإن كل كتابات الراهبات بعد ذلك كانت ذات سمة صوفية روحانية تعرض رحلة ذاتية إلى داخل روح ونفس الكاتبة استلهاماً للكتاب المقدس والطقوس وكتابات علماء الكنيسة الأوائل. ومما يلفت النظر هنا أنه فى بعض الأحيان عندما لا تستطيع أن تدون المؤلفة نفسها تجربتها الذاتية كانت تمليها على راهبة أخرى أكثر براعة فى استخدام القلم أو حتى على قسيس أو راهب آخر. وهذا ما حدث بالنسبة لهيلدجارد (ق١٢) الألمانية ومارجرى كمب الإنجليزية (ق١٥) ، ولكن على الأقل نستطيع القول أنه قد وصل إلينا فى العصر الحديث وثائق ومخطوطات مطولة لكتابات هؤلاء الراهبات أنفسهن فيها تسجيل لرؤى صوفية وشروح وتعليقات وآراء روحية نسائية ، وقد أتاح هذا فرصة كبيرة للدارسين فى الغرب أن يعكفوا على هذه النصوص لتحليلها ودراستها من الناحية التاريخية والثقافية والاجتماعية والدينية ، فيستشفون تيمات وصور وتعبيرات معينة تم استخدامها من قبل هؤلاء النساء ويضعونها فى السياق الثقافي التاريخي لذلك العصر، مثل الكتابات الشهيرة التي بقيت لراهبات الدير المعروف بألمانيا هلفتا Helfta (ق١٣) وهيلدجارد المذكورة سابقاً وجوليان نورويش الإنجليزية (ق١٤). وكلها كتابات تميزت بوجود تيمة مشتركة انشغل بها الباحثون وهي

تصوير "أمومة" السيد المسيح مجازياً والتركيز على خصائص "الرعايـــة الأموية" للمســـيح "المخلـــص" (Bynum, 1982). وهكذا بدون الدخـول فى تفاصيل ليس لها مجال الآن تمكن الباحثون من ربط هـــذه الكتابـــات والرموز بسياقها وناقشوا هل هي انعكاس للبيئة الثقافية المعـــاصرة أم رد فعل لها ، هل هي تصورات لا علاقة لها بالواقع أم كان لها تأثير علـــى هذا الواقع؟ هل كان لها أثر ملحوظ فى تطورِ التراث المسيحي فى نظرته إلى اللاهوت وطبيعته٠٠٠ إلى آخره.

المقصود هنا هو أن هؤلاء الباحثين أكثر حظاً ، فتحـــت أيديـــهم كتابات بعينها حتى لو أخذ فى الاعتبار أن بعضها مملاة أو تم الاعتمـــاد على قساوسة ورهبان ورجال دين لحفظها ونشرها ، بينما كما أشرنا علينا أن نعتمد فى التراث الإسلامي على أقوال متناثرة للفقيهات والصوفيـــات مكتوبة على لسانهن.

الفئة الثانية من النساء اللاتي عشن الحياة الدينيـــة كـــانت فئـــة الناسكات الزاهدات ، وهؤلاء فى الأصل لم يعشن داخـــل مؤسســـات أو مساكن الأديرة ، ولكن بدأن فى القرون المبكرة للمســـيحية (قبـــل ق١١) كنساء عابدات يعتكفن فى كهوف بعيدة أو فى الصحراء بعيداً تماماً عـــن أي اتصال بالجماعة ، وبعد فترة أصبح من الأسلم أن يعشن فى صومعـــة اعتكاف منفصلة وإن كانت ملحقة بكنيسة معينة أو دير مـــن الأديـــرة ، وتعزل الناسكة تماماً للتعبد والتأمل والصلاة المنفردة وتخضـــع لقـــانون العزلة والانغلاق التام فيكون ممنوعاً لها الاتصال بالعـــالم الخـــارجي أو ترك هذا "المرفأ" / "المرسى" (anchorhold) إلا من خلال نافذة تفتـــح على داخل الكنيسة أو وجود أفراد من الخدم لتلبية احتياجاتها الضروريـة. وبمرور الوقت تحولت هذه الحياة التي اختارتها الكثيرات إلى شبه مهنـــة حين أصبح بعضهن اللاتي نلن سمعة كبيرة لتقواهن وتصوفـــهن بمثابـــة مراكز جذب للمسافرين والحجاج والزوار يقصدونهن للاستشارة الروحيـة والتبرك والسؤال فى مجال العبادة والتديـــن. ومـــن أشـــهر الناســـكات الإنجليزيات هي جوليان نورويش (١٣٤٢-١٤٢٩) التي تركت لنا أثـــراً مكتوباً شهيراً عبارة عن أربعة عشر رؤية صوفية كشـــفية : كشـــوفات

الحب الإلهي. وهكذا برزت من هذه الفئة مجموعـــات مـــن القديســات والمتصوفات المشهورات فى التراث المسيحي.

أما الفئة الثالثة وهي فئة مارست الحياة الدينية الوعظيـــة ولكـــن خارج مؤسسة الكنيسة تماماً وكوادرها ، ومن أشهر هؤلاء مـــن عُرفـــوا باسم "البيجين" (Beguines) اللاتي انتشرن آخر القرن الحـــادى عشـــر وأول القرن الثاني عشر فى شـــمال أوروبـــا وخاصـــة بلجيكـــا، وهـــن مجموعات من النساء يعشن في تجمعات سكنية خاصـــة بـــهن، أردن أن يحققن المعادلة الصعبة فى العصور الوسطى أن يحيين حياة دينية بالمدن أساسها التقوى والصلاة والوعظ العام وأعمال الخير، فـــأردن ممارســـة التدين والإرشاد الديني وهن جزء بارز من حياة الجماعة فى نفس الوقت، ويترجمن تدينهن هذا إلى أعمال خيرية وخدمـــات فعليـــة بيـــن النـــاس، فيصبحن قدوة للحياة المسيحية الخيرة الحقة ولكن دون أن يخضعن لسلطة الكنيسة ومراقبتها ولوائحها. وقد أطلق بعض الباحثين على هذه الفئة أنهن يشكلن أول حركة نسائية انفصالية فى التاريخ الغربي (Bynum, 1982) ، ورغم نجاح التجربة لسنوات عديدة إلا أنهن تعرضن لهجوم ونقد مكثف من القساوسة والكنيسة حتى تم تجريمهن وتكفيرهن رسمياً وتم حل هـــذه التجمعات. وقد رأى الدارسون أن المشكلة كانت تكمن فى أنهن خلقـــن لأنفسهن مساحة "بينية" لا هى تحت سيطرة الكنيسة كراهبات وناســـكات فى الأديرة ولا هي تحت سيطرة الزوج بالمنزل يمارسن الدور التقليـــدي للزوجة والأم. وكان هذان الدوران – راهبة أو زوجة / أرملـــة- همـــا الدورين المرسومين بعناية للنساء أو المساحتين المسموح لامرأة العصور الوسطى أن تتحرك داخلهما. أما نساء "البيجين" فلـــم يخضعـــن للوائـــح الانعزال فى حياة الأديرة بينما لم يتخلين عن ممارسة الحياة الدينية وهـــن يتحركن بحرية داخل المجتمع فى المدن ووسط النـــاس (Stoner). ولـــم يتقبل السياق التاريخي فى ذلك الوقت هذا الوضع الملتبس ، خاصة فكـــرة أنهن مارسن الوعظ النشط فى الحياة العامة استقلالاً عن الكنيسة وأصبـــح هذا أمراً مستهجناً للغاية حتى تم تحريم هذه المنشآت وأنشطتها فى مؤتمر فيننا ١٣١٢م.

وهنا نتوقف عند نقطة مقارنة : بالنسبة لشيخات الربط والزوايا التي ورد وصفها فى الجزء الأول والتي هي أيضاً منشآت أو تجمعات نسائية لشيخات ونساء عابدات ولكن ناشطات فى العمل الاجتماعي الخيري ، لم تبرز هذه المشكلة أبداً في أنهن شيخات عالمات وجزء من الحيز العام فى نفس الوقت ، بل نقرأ فى المصادر الكثير من المديح والاحترام والثناء على حسن إدارتهن لهذه الربط ، وبينما لم يتم بالطبع تحريم أو حل هذه المؤسسات رسمياً لاختلاف الظروف إلا أنه من الملاحظ اختفاء شيخات الربط التدريجي حتى العصر الحديث عندما نشأت أطر ومؤسسات الدولة الحديثة بقيودها وقوالبها. هل من الممكن أيضاً اعتبار هذه الربط بشيخاتها ومديراتها مثالاً أو نموذجا مبكرا لمبادرات نسائية إسلامية جماعية نجحت فى خلق مساحة أو حيز خاص بالنساء من داخل المجتمع المسلم العريض بهدف حل مشاكلهن الخاصة مثل اليتم أو الترمل أو الطلاق أو الهجر وتوفير المساندة المعنوية والاجتماعية والتعليمية والمالية ؟

أما عن المجموعة الرابعة وهي الفئات "المهرطقة" أو المنشقة تماماً عن العقيدة المسيحية كما عرفتها وحددتها كنيسة العصور الوسطى، وهي فئات انتمت لملل أو مذاهب بعينها خرجت على الكنيسة وسلطة البابا. وقد لوحظ أن عدداً كبيراً من اتباع هذه المذاهب والبدع كان من النساء، فبعض هذه المذاهب أتاحت للنساء فرصاً للمشاركة الفعالة لم يجدنها داخل الكنيسة بسبب حرمانهن من مناصبها. ولن نتطرق إلى أكثر من هذا الذكر الموجز لهذه الفئة فهو موضوع متشعب وخارج نطاق هذه الدراسة الآن.

ومن العرض السابق يتضح أن هؤلاء النساء المسيحيات فى العصور الوسطى المعنية وإن كن يشتركن مع نساء المجتمعات الإسلامية المتزامنة فى أنهن وجدن فى التدين والحياة الدينية فرصاً لتحقيق الذات والاستقلال المعنوي والعاطفي والثقة بالنفس والتمكين، ورغم أن بعضهن حققن مكانة عالية فى التراث كقديسات ، إلا أنهن لم يكن "عالمات" بمعنى اشتغالهن بفروع تخصصية للعلوم الدينية الرسمية أو التقليدية من إصدار أحكام وآراء فقهية وفتاوى يتم نقلها وتعليمها والعمل بها فى دائرة أوسع

من الناس – رجالاً ونساءً – أي الوصول إلى مستوى متقدم من الدراسة والاجتهاد الديني المشروع.

٣- عائشة الباعونية:

هي عالمة دين وفقيهة ومفتية ، وأيضاً كاتبة شاعرة ومؤلفة ، صاحبة هذه السلسلة من الكتب الدينية والصوفية : كتاب الممالك الشريفة والآثار المنيفة وكتاب الفتح الحنفي وديوان "مولد جليل للنبي صلى الله عليه وسلم" بعضه شعر وبعضه نثر ونشر فى القاهرة عام ١٨٨٣م، وكتابات وأشعار أخرى كثيرة. وأود أن أتوقف عندها بالذات لأنها نموذج جيد لعالمة دين مسلمة وفقيهة ناشطة – أو "عاملة" كما جاء وصفها – فى الحياة العامة وفى السفر بين الأقطار والاتصال بعلماء عصرها والتفاعل معهم فكرياً حول موضوعات فى الدين والإفتاء والأدب ، ولكنها فى نفس الوقت مثال على كثير من الإشكاليات التي أثرناها سابقاً خاصة قضية المؤلفات الضائعة أو الأقوال والقصائد المروية عنها فى كتب التاريخ والقواميس ومدى ثقتنا فى صحة نسبها. ومع ذلك ما وصلنا من آثارها يستحق التحليل والدراسة باعتباره صوتاً وحضوراً تاريخياً للمرأة المسلمة الفقيهة والعالمة.

تبادلت عائشة الباعونية قصائد مدح وألغاز لغوية وأدبية مع أبى الثناء محمود بن آجا صاحب دواوين الإنشاء بالديار المصرية آنذاك عندما زارت القاهرة ، وكذلك مع شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري الذي خاطبها بـ"يا روضة العلم" وأثنى على "منثور" ما تكتب و"منظومه" – أى النثر والشعر. ومن أعمالها قصائد صوفية غزلية رائعة تستخدم فيها معاني ورموز التراث الصوفي الممتد زمناً طويلاً من قبلها ، خاصة صور حبيب القلب وتجلى الجمال الإلهي والوصال والمنادمة الرمزية مع الحبيب الإلهي الذي يُذهِب كل خوف وسقم وحزن، وهي صور تذكرنا خاصة بالأشعار الشهيرة لرابعة العدوية والتي سار على دربها الكثير من الصوفيات بعدها وكذلك الشعراء الصوفية فى إظهار الوجد والعشق والتغزل ومخاطبة الله (سبحانه) مباشرةً بعبارات

تقوى من الرابطة الشخصية الروحية بين الشاعر أو الشـــاعرة والرفيــق الأعلى. من أبيات عائشة:

يا محبوبى يا مطلوبى * يا مقصودى يا موجودى**
كن لى كن لى وأجبر كسرى * واغني فقري بالتداني والوصال**

أما بالنسبة لقضية التمثيل أو التصوير التاريخي التي أثرناها فـــى البداية ، فسنجد مثلاً أن هذه الشخصية الهامة ظهرت فى ثلاثة مصـــادر رئيسية ، ركز المصدران الكواكب السائرة للغزى وشذرات الذهب لابـــن العماد على الجانب العلمي الفقهي والصوفي لكتاباتها ولشخصيتها ، بينمـا تسلط الضوء زينب فواز فى موسوعتها الدر المنثور في طبقات ربـــات الخدور (١٨٩٦) على عائشة "الشاعرة المطبوعة ... الأديبـــة **اللبيبـــة العاقلة**" (ص٢٩٣) التي وصفها العلماء والمشايخ ومنهم العالم الســـوري المشهور عبد الغني النابلسي – بأنها "ربة **الفضـــل** والأدب". نلاحـــظ أن الصورة التاريخية عند زينب فواز تظهر عائشة الباعونية كشخصية أدبية فذة تشتهر بالبلاغة والشعر المبين ، أما عن السمات الشخصية الأخـــرى فهناك تأكيد على عقلها وذكائها وفهمها من ناحية وعلى امتلاكها الفضـــل فى كثير من المجالات من ناحية أخرى. وهذه صفات وألفاظ تحمل الكثير من الدلالات لتعارضها مع إصرار بعض العلماء والمفسرين فى أعمـــال الفقه والتفسير على دونية النساء من الناحية العقلية والفكرية أو على فكرة تفضيل الله (سبحانه) جنس الرجال على جنس النساء.

كما نقرأ فى ترجمة عائشة فى الدر المنثور أنه "كان على وجهـها من الجمال لمحة جّملها الأدب وحلتها بلاغة العرب" ، مما يعني أن زينب فواز اهتمت بأن تلتقط هذه التفصيلة من أحد المصادر التـــي اســـتخدمتها لتوردها ، وهذا يدل على أن سفور عالمة مثل عائشة الباعونية فى تعاملها مع علماء ومؤرخي عصرها ومشاهدتهم إياها كان وارداً وأمراً طبيعيـــاً. بل أن هناك فى الدر المنثور أيضاً ما يفيد أن السائلين من الرجال كـــانوا يستفتونها نظماً وترد عليهم بالمثل ، فبدأ أحدهم سؤاله : "ما قولك يا ســتنا

العالمة ..." إلى آخر الأبيات ، وردت هي : " قالت لكم ستكم العالمة ..." كذا وكذا. ومن الواضح أنها عاشت فى هذا المحيط الاجتماعي والثقافي محظية بالقبول والترحيب وليس الاستنكار أو التعجب أو حتى محاولة المؤرخين تبرير كلامها وحياتها ونشاطها الأدبي والعلمي والديني.

يتضح لنا أن لعائشة إنتاجاً أدبياً ضخماً يتمثل فى قصائد عديدة ثم شروح وتعليقات وتلخيصات لأعمالها هي أو لقصائد وأعمال شعراء آخرين – أي ما يمكن أن نعتبره نقداً أدبياً. ويرد فى دائرة المعارف الإسلامية أنها نظمت شعراً كتاب المعجزات والخصائص النبوية للسيوطى، كما اختصرت رسالة الهروى الصوفى منازل السائرين فى أرجوزة عنوانها "الإشارات الخفية فى المنازل العلية"، ثم اختصرت أيضا فى أرجوزة أخرى القول البديع في الصلاة على الحبيب للسخاوى العالم المؤرخ والمحدّث المشهور (جـ٦، ص٩٩). أما أشهر قصائدها على الإطلاق قصيدة "الفتح المبين فى مدح الأمين" وكتبت عليها شرحا، وقد تأثر بهذا العمل عبد الغنى النابلسى فى كتابة بديعيته "بسمات الأزهار" (١٨٨١م) وكان يقارن بين عمل عائشة هذا وأعمال أدبية أخرى. وهناك ذكر أن القصيدة والشرح نشرا فى القاهرة عام ١٩١٥م على هامش خزينة الأدب لابن حجة. وقد تزوجت عائشة الباعونية وكان لها ابن واحد.

والخلاصة أن مثل هذه الأنماط التاريخية لعالمات الدين والفقيهات فى التراث الإسلامي تبدو وكأنها فى تضاد مع الصورة المغايرة فى الأدبيات الإرشادية والتعليمية التي تقدمها بعض المصادر الأخرى من كتب التفسير أو الأحكام الفقهية أو آراء من الناحية النظرية وفيها بعض التحامل على قدرات النساء العقلية والفكرية أو حتى الدينية ، بينما تُمتدح مثل هؤلاء العالمات والفقيهات لعقلهن وتميزهن على رجال ونساء عصرهن فى العلوم الدينية والعقلية الصعبة. وتفسر لنا أميرة سنبل أن هذا التفاوت بين الخطاب الرسمي للعلماء حول النساء والواقع التاريخي أو الاجتماعي ربما يشير إلى "وضع مضاد تماماً لذلك الذي يقدمه لنا الخطاب الرسمي. وهذا يعنى أن الحياة التي عاشتها النساء بالفعل قد

دفعت الفقهاء إلى تفسير الشريعة بشكل أكثر محافظة ، كلما جنحت النساء إلى التحرر كلما تشددت التفسيرات" (ص١٦). أي أننا نجد فى المصادر والتواريخ القديمة نوعاً من الصراع أو الشد والجذب فى اتجاهين متعاكسين بين ما يسمى بالمستوي المعياري النظري لخطابات العلماء من ناحية ، والواقع الاجتماعي والسياسي الفعلي من ناحية أخرى. ويستشف محمد فاضل فى دراسة مستفيضة له حول تحليل الخطاب فى الأعمال الفقهية وعياً لدي الفقهاء والعلماء أنفسهم بهذه المسألة أو هذا التناقض : التسليم بالمشاركة الفكرية المساوية للمرأة والإقرار بإنتاجها لمادة معرفية دينية موثوق بها من ناحية ثم تهميشها فى السياقات السياسية للسلطة ومناصب المؤسسات الرسمية مثل القضاء وغيره من ناحية أخرى (١٩٩٧ ، ص١٩١).

هذا كله إذا سلّمنا أن الصورة التاريخية المقدمة لنا عن هؤلاء الفقيهات والمفتيات حقيقية ، وكما رأينا ليس هناك ما يدعو إلى عدم تصديق هذا الحضور الفعال والسلوك الذي يعضده استنتاجات الدارسين الأخرى عن حياة النساء فى الحيز العام وممارستهن لحقوقهن القانونية فى فترات ما قبل الحداثة. وحتى إذا طرحت مرة أخرى إشكالية مدى مصداقية كتابات وكلام هؤلاء النساء بالذات فإن مهجة كهف ترى أنه حتى إذا افترضنا أن هذه البلاغات من نسج خيال الرجال حول النساء ، فإن المؤرخين والكتاب عند تقديم "تصوراتهم" و"تمثيلاتهم" للمرأة العالمة والفقيهة قدموها فى شكل المتحدثة الإيجابية صاحبة صوت وحضور وذات جرأة وتفاعل مع المحيطين بها ، وهذه الآلية لها دلالة ومغزى فى حد ذاتها (ص ١٥٩).

٤- استنتاجات أخيرة:

عند المقارنة بين عالمات الدين فى التاريخ الإسلامي وراهبات وقديسات التاريخ المسيحي فى أوروبا نجد أوجه شبه دالة مثل :

أ. أن الحياة الدينية العريضة فى العصور الوسيطة أتاحت أفضل الفرص للنساء داخل كل تراث لتحقيق الذات والاعتداد بالنفس بعيداً عن أو قبيل عمليات المأسسة وسيادة سلطة الدولة المركزية فى حالة

المجتمعات الإسلامية، ورغماً من سلطة الكنيسة وهيمنة رجال الدين على مناصبها وطقوسها ونظمها في حالة المجتمعات المسيحية الأوروبية.

ب. وهذا ينبهنا إلى التشابه في إشكالية التهميش من قبل المؤسسات الرسمية في كلا التراثين.

ت. الحدود بين الحيز العام والخاص كانت أكثر مرونة ومجالاتهما متداخلة بشكل يسمح أن تزيد مساحة العام بشكل كبير بالنسبة للنساء داخل مجتمعاتهن ، بل أن الاستقطاب أو الفصل الصارم بين المجالين ظاهرة حديثة في القرنين الأخيرين تولدت في الغرب على أثر الثورة الصناعية.

ث. في كلا التراثين آثار وكتابات نسائية قيمة يجدر دراستها ومقارنتها من الناحية النصية: أي التناول الأدبي للصور والرموز الدينية ، ثم علاقتها بسياقاتها التاريخية والثقافية ودور هؤلاء النساء في تشكيل تواريخ التراث الفكري والديني. أما أوجه الاختلاف كما توصلنا إليها :

أ. لم تكن النساء في هذه القرون الوسيطة بأوروبا عالمات دين بمعنى "اشتغالهن" بفروع تخصصية للعلوم الدينية الرسمية وإصدار أحكام وفتاوى إلى آخره ، وذلك رغم المكانة العالية التي وصلن إليها كقديسات وراهبات متصوفات.

ب. وفي المجتمعات الإسلامية الوسيطة قد يكون الطابع العام لاشتغالهن في الساحة الدينية الفكرية بالتدريس والوعظ والإفتاء صرفهن عن الاهتمام بتدوين الكتابة الذاتية التفصيلية بكثرة ، في حين أن النساء الأوروبيات اتجهن أكثر إلى داخل النفس وتأملها، وبسبب القيود المجتمعية الخارجية المفروضة ركزن على التعبير عن تجارب دينية ذاتية عميقة وأطلقن العنان للتفكر في طبيعة الخالق وتحليل علاقتهن به، وهذه هي الكتابات المطولة التي وصلتنا ولا نزال ندرسها حتى الآن.

أميمة أبو بكر

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

المصادر العربية

ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد الصدرى الخامس المالكى (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م).
المدخل، (المطبعة المصرية، ١٩٢٩).

ابن حجر العسقلانى: احمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م).
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق سالم الكرنكوى (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣).

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨).

ابن سعد: محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م).
كتاب الطبقات الكبرى، تصحيح ادوارد سخو،
(ليدن:مطبعة بريل).

ابن عبد البر للقرطبى: أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٣م).
جامع بيان العلم وفضله، صححه وراجعه عبد الرحمن محمد عثمان، (القاهرة: مطبعة العاصمة، ١٩٦٨).

ابن قدامه: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد.
(ت٦٢٠هـ /١٢٢٣م) المغنى، تحقيق عبد الله التركى وعبد الفتاح الحلو، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر،١٩٨٦).

الجوزى: جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على
(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م).
صفة الصفوه، (القاهرة منشورات دار الصفا بالقاهرة١٤١١هـ).

الخطيب البغدادى: أبو بكر احمد بن على (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٣م).

تاريخ بغـــداد أو مدينـــة الســـلام، (القـــاهرة: مطبعـــة الخانجى،١٩٣١).
كتاب الفقيه المتفقه وأصول الفقـــه، (القـــاهرة: مطبعـــة الامتياز، ١٩٧٧)

الذهبى: شمس الدين محمد أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م).
سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارنـــؤوط، (بـــيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦).

السخاوى: أبو الحسن نور الدين على بن احمد بن عمر بـــن خلـــف (ت القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر ميلادى).
تحفة الأحباب وبغية الطلاب فـــى الخطـــط والمـــزارات والتراجم والبقاع المباركات، (القاهرة: مكتبـــة الكليـــات الازهرية، جـــ٢، ١٩٨٦).

السخاوى: محمد شمس الدين عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).
الضوء اللامع لأهل القرن التاســـع، (القـــاهرة: مكتبـــة القدس،١٩٣٤).

السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).
موطأ الامام مالك وشرحه تنوير الحوالك، (مصر: مطبعة مصطفى الثانى الحلبى، ١٩٥١).

الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م).
الوافى بالوفيات، (استانبول: مطبعة الدولة، ١٩٣١).

الغزى: نجم الدين (ت ١٠٦٢هـ / ١٦٥١م).
الكواكب السائرة بأعيان المئه العاشرة، حققه وضبط نصه د. جبرائيل سليمان صبور، (جونيه: مطبعـــة المرســـلين اللبنانيين، ١٩٤٩).

المرادى: أبو الفضل محمد خليل بن على (ت ١٢٠٦هـ / ٧٩١م).
كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر، (القاهرة: دار الطباعة الكبرى ١٨٧٤).

المراجع العربية

أحمد عيسوى (١٩٦٧-١٩٦٨). المدخل للفقه الإسلامي، تاريخه ومصادره نظرية الملك والعقد، قواعده الكلية. القاهرة: دار الاتحاد العربى للطباعة.

أميرة الأزهرى سنبل (١٩٩٦ ، ١٩٩٩). النساء والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

حسن حنفى (١٩٩٨). دراسات اسلامية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية.

دائرة المعارف الإسلامية (١٩٦٩). النسخة العربية، اعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد وعبد الحميد يونس. القاهرة: دار الشعب، الطبعة الثانية.

زينب فواز. (١٨٩٦). الدر المنثور في طبقات ربات الخدور. الكويت: مكتبة ابن قتيبة.

العاملى: (١٩٣٨). السيد محسن الأمين الحسينى. أعيان الشيعة، دمشق: مطبعة ابن زيدون.

كحاله: (١٩٩١). عمر رضا. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١٠.

محمد عبد الحميد عيسى (١٩٨٢). تاريخ التعليم في الأندلس. القاهرة: دار الفكر العربى.

نللى حنا. (١٩٩٧). تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبو طاقية شاهنبدر التجار. ترجمة وتقديم رؤوف عباس. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

وجيه كوثرانى (٢٠٠١). التاريخ ومدارسه في الغرب وعند العرب: مدخل إلى علم التاريخ. بيروت: الأحوال والأزمنة للطباعة والنشر.

المقالات العربية

أميمة أبو بكر: (١٩٩٨). "المحدثات فى التاريخ الإسلامى (القـــرن ١٤ و١٥م)". هاجـــر ٦/٥، القــاهرة: دار نصــوص. ص ١٢٥-١٤٠.

المراجع الأجنبية

Berkhofer, Robert F. 1995. Beyond the Great Story: History as Text and Discourse. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Bridenthal, Renate. (ed.) 1977. Becoming Visible: Women in European History. Boston: Houghton Mifflin Company.

Buchanan, Constance. 1996. Choosing to Lead. Boston: Beacon Press.

Bynum, Caroline Walker. (eds.) 1986. Gender and Religion: On the Complexity of Symbols. Boston: Beacon Press.

Bynum, Caroline Walker. 1982. Jesus as Mother: Studies in the Spirituality of the High Middle Ages. Berkeley: Univ. of California Press.

Bynum, Caroline Walker. Fragmentation and Redemption. 1992. New York: Zone Books.

Chamberlain, Micheal. 1994. Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus. New York: Cambridge University Press.

Encyclopedia of Islam. 1995. Lieden, Brill.

Evans, Ruth and Lesley Johnson. (eds.) 1994. Feminist Readings in Literature. London and New York: Routledge.

Gross, Rita. 1996. Feminism and Religion. Boston: Beacon Press.

Keddie, Nikki and Beth Baron. (eds.). 1991. Women in Middle Eastern History. New Haven: Yale University Press.

King, Ursula. (ed.) 1995. Religion and Gender. Oxford: Blackwell.

Larrington, Carolyne. Women and Writing in Medieval Europe. 1995. London and New York: Routledge.

Lutfi al-Sayyid-Marsot, Afaf. 1995. Women and Men in 18th Century Egypt. Austin: University of Texas Press.

Lutfi, Huda. 1991. "Manners and Customs of 14th Century Cairene Women; Female Anarchy Vs Male Shar'i Order in Muslim Prescriptive Treatises." In Nikkie Keddie and Beth Baron, pp. 99-121.

Makdisi, George. 1991. Religion, Law and Learning in Classical Islam. Great Britain: Variorum.

Makdisi, George. 1981. The Rise of Colleges: Institutions and Learning in Islam and West. Edinburg: Edinburg University Press.

Malti-Douglas, Fedwa. 1991. Woman's Body, Woman's Word: Gender in Arabo-Islamic Discourse. Princeton, N.J.: Princeton Univ.

Masud, Mahmud Khaled, "et al", (ed.). 1996. Islamic Legal Interpretation: Muftis and their Fatwas. Cambridge, Mass: Harvard University Press.

Roded, Ruth. 1994. Women in Islamic Biographical Collections from Ibn Sa'd to Who's Who. Boulder & London: Lynne Rienner Publishers.

Sharma, Arvind. (ed.). 1987. Women in World Religions. Albany: State Univ. of N.Y. Press.

Spellberg, D.A. 1994. Politics, Gender, and the Islamic Past. New York: Columbia Univ. Press.

Stoner, Abby. "Sisters Between: Gender and the Medieval Beguines." www.sfsu.edu/~has/ex-post-facto.

Stuard, Susan Mosher. (ed.). 1987. Women in Medieval History and Historiography. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Tritton. 1957. Materials on Muslim Education in the Middle East. London Luzec, Co.

Tucker, Judith. 1986. Women in Nineteenth Century Egypt.Women in Nineteenth Century Egypt. Cairo: American University Press.

Webb, Gisela. (ed.) 2000. Windows of Faith. New York: Syracuse University Press.

مقالات أجنبية

Fadel, Mohammad. 1997. "Two Women, One Man: Knowledge, Power, and Gender in Medieval Sunni Legal Thought." In International Journal of Middle East Studies 29, 185-204.

Lutfi, Huda. 1981. "Al-Sakhawi Kitab al-Nisa as a Source for the Social and Economic History of Muslim Women During the Fifteenth Century A.D." The Muslim World, LXXI, pp. 104-124.

تعريف بالكاتبتين:

أميمة أبو بكر: أستاذة مساعدة بكلية الآداب، قسم إنجليزى، جامعة القاهرة، وباحثة مؤسسة لملتقى المرأة والذاكرة. لها مقالات فى النقد الأدبى والشعر الصوفي والأدب المقارن، متخصصة فى آداب العصور الوسطى المسيحية والإسلامية، وتكتب عن النساء فى التاريخ الإسلامى والتصوف وفى الكتابات الإسلامية التاريخية.

هدى السعدى: "مدرسة" بكلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة فرع بنى سويف، وباحثة بملتقى المرأة والذاكرة. تدرس تاريخ الشرق الأوسط بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومتخصصة فى دراسات التاريخ الإسلامى ومناهجه. كتبت رسالة الماجستير عن قواميس الأعلام الطبية فى التاريخ الإسلامى، ورسالة الدكتوراة عن دولة بنى رسول فى القرن الثالث عشر.

ماذا نعرف عن الفقيهات والمفتيات فى التاريخ الإسلامى؟ هل كانت هناك شخصيات نسائية عامة ومعروفة تعمل بالعلوم الدينية؟ وماذا كان وضعهن فى مجتمع النخبة الدينية وكيف تحدثت عنهن المصادر؟ ثم كيف تتم دراسة سيرهن مقارنة بقديسات أوروبا المسيحيات فى ذلك الوقت؟

إن إلقاء الضوء على التاريخ المنسى للنساء العالمات فى المجتمعات الإسلامية قبل العصر الحديث يلفت النظر إلى التغيرات التاريخية والثقافية المعقدة التى تمر بها هذه المجتمعات، وتدحض مقولات غير مقبولة عن عدم مشروعية مشاركة النساء فى الحياة الدينية العامة أو استنتاجات تاريخية غير صحيحة حول عدم وجودهن بالمرة على الساحة.

ويفتح البعد المقارن مجالات جديدة للبحث والتحليل والتساؤلات حول التأريخ للنساء فى العصور الماضية وعلاقة قضية التاريخ وتصوراته الثقافية الممتدة بالحاضر.